الدمعة الحمراء



قصة وشعر

المرحوم الأمير محمد بن أحمد السديري

الدمعة الحمراء

قصة وشعر
المرحوم الأمير محمد بن أحمد السديري

مقدمة الطبعة الثانية

الدمعة الحمراء .. هذا الكتاب الذي بين يديك ، عزيزي القاريء ، هو في طبعته الثانية .. حاول عزيزي القاريء أن تتعرف على ما يرمز اليه مؤلفه من خلال هذه القصة .. انك ان حاولت الوصول الى ما وراء السطور فانك بلا شك ستدخل في عالم خصب بالادب ، وسترى كيف استطاع مؤلفه (رحمه الله) ان يمزج بين الحقيقة والخيال من خلال هذه القصة التي استطاع ببراعة ان يستعرض فيها عادات وتقاليد واعراف المجتمع البدوي ويربطها ببعضها من خلال قصة حب دارت احداثها في البادية بين « شيمة » و « وافي » ..

ولكن لماذا هي الدمعة الحمراء ؟ .

ـ ومن هي شيمة ؟

ـ ومن هو وافي ؟

مما لا شك فيه ان العين حينما تنتهي دمعاتها البيضاء او الزرقاء كما نسميها نحن اهل البادية ، حينما تنفد هذه الدمعات وتكون العين مجبرة على البكاء فانها لن تجد غير الدموع الحمراء لتذرفها ، ولعل الدموع الحمراء لن تكون بغزارة تلك الدموع البيضاء او الزرقاء .. لكنها دمعة حمراء واحدة او اثنتين وينتهي كل شيء .. فلن يكون هناك عين بعد الدمعة الحمراء ، او ان الدمعة الحمراء هي اعلان لنهاية العين ، واعتقد ، بل اجزم . انها نهاية الانسان نفسه . لذا كانت الدمعة الحمراء ..

اما شيمة ووافي فهما رموز لاشياء اراد بها محمد السديري (رحمه الله) ان يذكر الناس بها ، ففي هذا العصر المادي تلاشت قيم كان الناس يتحلون بها في السابق ، وهذه نتيجة حتمية للتطور الحضاري السريع او لعلها سلبيات الحضارة التي للاسف الشديد تفشت في مجتمعاتنا حين قل الوفاء وتدنت الشيم ..

ان شيمة هي الشيمة التي تسامى فيها انسان البادية في قديم الزمان . واستطاع فيها ان يقهر الصحراء ، واستطاعت فيها قبائل تعد بالالاف ان تعيش متجاورة بدون قانون يحدد علاقات حسن الجوار ، بل كان القانون كله شيمة البدوي ، والمحاكم كلها شيمة البدوي ، اما وافي فهو الوفاء الذي انعدم الا ما شاء الله ؛ الوفاء الذي يجعل البدوي يبكي حين يودع جاره ، او يجعله يبكي حينما يمر على ارض سكن فيها في السنين الماضية ، وفاء للارض ولمن عاش عليها ..

اما قصة الحب فهي قصة حقيقية تدخل الخيال في بعض فصولها انما هو الحب الذي لم نعرفه الآن ، وان توفر ، بهذه الطريقة . فلابد من وجود نزعة .. ولابد من مصلحة ..

ليس بالكثير ان نذرف دمعة حمراء حينما نفقد شيمة ووافي في نهاية القصة فرغم اننا نعرف انها « قصة » الا اننا سنعايش احداثها بكل ما نملك من احاسيس ولن نبخل بدمعة عند النهاية ..

الا ان الناس بخير ، ولا يزال الوفاء موجودا ولا تزال الشيمة بالرؤوس قبل القلوب .. رغم كل شيء ..

رحم الله الامير محمد بن احمد السديري رحمة واسعة ، فقد كان قلبه يحمل وفاء لكل شيء حتى انك تقول انه يعرف منه الوفاء .. لذا فهو يريد الناس ، كل الناس ، ان يكونوا اوفياء . وحتى لو كانوا كذلك فهل يكونون بنفس الدرجة ؟ فهذا صعب بل صعب جدا ..

ولا يخفاك عزيزي القارىء ان قلب المؤلف توقف فجاة ليعلن نهاية اسطورة تحدث عنها الناس كثيرا ، على مدى خمسين سنة او ستين ، لان ذلك القلب الذي فطر على الشيمة والوفاء لم يعد يتحمل العيش بهذا العصر الذي يتطلب التأقلم مع معطياته فوقف محمد السديري وحيدا ليتحدى هذا العصر ببداوته وشيمته ووفائه ، وكان ذلك على حساب نفسه حتى انتهى بالتدريج ووقف ذلك القلب الكبير .. ورحل محمد السديري بجسمه وبقي اسمه واعماله خالدة بيننا وستخلد باذن الله على مر الاجيال لانه لم يحد عن مبادئه ولم يكل من تحدي العصر الحديث بكل ما استطاع من قوه وارادة الباري عز وجل فوق كل شيء ..

لا تنس عزيزي القارىء ، ان تترحم على محمد السديري عند انتهائك من قراءة مؤلفه .. واعد النظر مرة واثنتين وثلاثا لكي تصل لما وراء هذه السطور، وستصل بالتأكيد لما اراده محمد السديري وتسمع صوته وهو يناديك خلف هذه السطور ليدعوك الى اتباع خطواته ليبقى الوفاء هو الوفاء ، والشيمة هي الشيمة ..

وستعرف ان القصة حقيقية حتى لو لم يعشها المؤلف الا انه تفاعل معها وكل ما يصدر من القلب يصل الى القلب ..

ستقول كما قلت انا انها معاناة حقيقة لشخص « ما » في زمن «ما » عاش احداثها وروى القصة لمحمد السديري ، ان لم يكن هو ، فصاغها رحمه الله باحاسيسه وشعوره فجاءت بهذه الطريقة التي هي غاية في الدقة وروعة في التصوير ، حتى القصائد كأن الابطال هم الذين قالوها وكأنها ليست تركيبة من روائع اشعار الامير محمد السديري وان صدف ان زرت المكان الذي وصفه في احدى القصائد عن مكان قبر « وافي » فانك ستجد قبر محمد السديري حاليا ..

شكرا عزيزي القارىء لاهتمامك باقتناء هذا المؤلف الذهبي وارجو ان اكون وفقت باعادة صياغته وارجو ان يجد له مكانا بمكتبتك العامرة ..

طلال عثمان السعيد
الكويت ١/١/١٩٨٠ م



مقدمة

بين يديك أول نموذج حي يمثل جانباً من حياة البادية في قلب جزيرة العرب على حقيقته ، وينقل واقعاً ما أراك تجده في غير هذا الأثر ، واضح الرؤية ناصع البيان صادق التصوير . . أنت مع هذا الأثر أمام جوانب ثلاثة . .

أبرزت في جدة وحسن عرض وابتكار . . أمام شاعر شعبي مطبوع ضرب في هذا اللون مع الشعر بنصيب وافر وتألق فيه نجمه ورجح سهمه . . وترك على ألسنة الناس ملهمات الشوارد ومقيدات الأوابد . . وهو هنا يريد أن يعطي الدليل الصادق على أن شعرنا الشعبي لايقف عند قصيدة تلتزم نهجاً مقيداً يقف بها خيالها عند معنى وتنضب قافيتها عندما يطول بها المدى ويتفيح بها الخيال . . وإنما هو مد يزخر بالعطاء ويفيض بالرؤى ويؤاتي حينما تواكبه القدرة وتعانقه الشاعرية المبدعة . . ومن أولى بهذه التجربة المتألقة في فننا الشعبي من الشاعر (محمد السديري) العلم الفرد في إخلاصه لفنه وإندماجه فيه ومواكبته لشاعريته المتدفقة المعطاء .

وأنت أمام نموذج من عرب هذه الجزيرة يمثل العربي في أصالته ومجده وسلوكه وعفته ومكارم أخلاقه ويصور لك واقعه الصورة الحقيقية التي تقرؤها وتتردد أمامها لعلها ضرب من الخيال أو دعوى يقتضيها التعصب للعنصر لتجدها هناك هي تمثل واقع (بني عذرة) يقتلهم العشق رجالا ونساء مع توافر أسباب الوصل واستجابة طبيعة

الصحراء ولكنها العفة ولكنه الشرف ولكنه الرفض لكل ما يخالف سنن القبيلة ويتعارض ومبدأهـــا .

ومن وراء ذلك إرادة حازمة وهيمنة على إرادة النفوس ونوازعها ودوافعها ومآثم الأوازع الشرف وتمكن العقيدة إذا وصل الغزل عند حد وقف رغم أنه غزل عارم يشب العاطفة ويؤجج الشهوة ويذكي نوازع النفوس . . يمثله شعرهم . .

بيضــاء تطمع فيما تحت حلتها وعـز ذلك مطلــوب إذا طلبــا
كأنها الشمس يعي كف قابضه شعاعها ويراه الطـرف مقتربــا

أو قولهـم :

بيض حرائر ما هممــن بريبــة كظباء مكة صيدهن حــرام
يحسبن من لين الحديث زوانيـا ويصدهن عن الخـنى الاسلام

وأنت أمام نوع من الأدب تظنه أول ماتراه وليد عامية موغلة لايمت إلى فصحانا بصلة ولا يرتبط منها بوشيجة . . فتنكره وتستنكف أن تناغيه أو تتذوقه . . ولكنه في الحقيقة إمتداد لشعرنا الفصيح وإنطلاق من معينه وإستجابة لقريحة العـربي الأصيلة الشاعرة . . عندما تقف عند مبانيه ومعانيه وتتذرق جناه ومشتهياته وتستطعمه وتتفهمه وترد الفاظه بأدنى تصريف إلى أصلها وأوزانها بأدنى تحريك إلى أرومتها . . تجده ذلك الشعر الأصيل بأوزانه ومعانيه وأغراضه وسننه . . هو لسان العربي في قلب جزيـرة العرب ما يزيد على خمسة قرون أستقطب في هذه الفترة تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم .. وصور أفكارهم وأحاسيسهم وخلجات نفوسهم ونبض عواطفهم . .

وإذا فانت في هذا الأثر أمام شاعر يمثل القمة في هذا اللون من الشعر وأمام مجتمع يمثل واقع العرب أصالة وفكراً وعاطفة . . وأمام فن ينتزع الى أصل أصيل ويركن الى منطلق رحب . . قصة تمثل علاقة حب بين فتى مؤثل المجد ثري الشرف ناصع الأردية فارع القامة مقدود أهيف لوحت طبيعة الصحراء بياض خديه فطعمته بسفعة زادته ملاحة

ووسامة وجاذبية وأعطاه شرف بينه وواقع مجتمعه طابعاً يتمثل في حياء مقبول وعفة متأصلة وطبيعة سجحة غير متكلفة . . ولعل لإسمه نصيباً من خلقه إذا عرفت أن إسمه (وافي)

أحب (شيمه) الفتاة المتأنقة الوسيمة وكأنما التقى معها على قدر فيما يحمله من خصائص خلقية وخلقية . . فتاة رود استبدت بنصيب وافر من الجمال ممشوقة القد هراء فرعاء ينسدل برقعها على وجه أفيضت فيه الملاحة ، وتأنق فيه الجمال كأنه استدارة قمر ، ولكن سحر العينين وغمازتي الخدين ، وحلاوة المبتسم ، وشمم الأنف لم يهبها الله للقمر مثلما وهبه (لشيمه) .

ونظرة أولى بين الفتى والفتاة تتبعها نظرات ألهبت شاعرية الفتى (وافي) وأذكت عاطفته ليقول لها في أول لقاء غرامي عف مؤدب :

يازين أنا جيتك على سرج قبا	طويلة السمحاق زينة مقادي
وداعي الهوى من يمك اليوم هبا	واجتاح يا المملوح بسرة فوادي
أنا لعلم الخبر منك أتنبا	أهرج لنا بالله هرج الودادي
جيتك وأنا عن كل أهلك أتغبا	جيتك وحاديني من الود حادي
من كل خلق الله لك القلب حبا	ومن شانكم يازين تعبت جوادي
وخليتها بالكود يمك تخبا	تاطا الوعر هو والسهل بالأيادي

وأتبع هذا المقطع بمقاطع يروضها بثمين الشعر ويستعطفها برقاه وللشعر في نفوس العذارى مغناطيسية فاعلة إذا أنطلق عن عاطفة وتنفس عن صدق وملك مقاليده طب به عارف منه لما يسحر ويأسر . .

لقد صادفت رياضة الشعر هوى في نفس (شيمه) وماذا تريد في فتى أحلامها غير ما تجسد في (وافي) من جمال ، وكمال ، ولطف وطيب عنصر وشاعرية غزلة ، مرحة ،

والدة لو علمت بنفسها لتمنى فتاها لما أهتدت في أمنيتها إلى ما طبع عليه (وافي) .. فعلقته حباً وتملك قلبها ولهاً وشغفاً . . لتتدفق شاعريتها – هي الأخـرى – وتقول حينما تفقـده :

ان غاب «وافي» كل شي معه غاب   والروح من بين الضماير سلبهـا
وان كان شفته فزت والنوم لي طاب   وفرحات قلبي صاحبي هو سببها
للعين في بعده عن النوم حراب   وقربه دوى عيني وبعده غضبها
قلبي يحبه لو نحا يم الأجنـاب   تفداه روحي لـو حبيبي نهبهـا

وتمضي في مقطع آخر :

أنا أروح وأدله مع الريم خاطري   العب كما جا مع الريم لاعبـه
وأشم الهوى في نجد وأقطف من الزهر   ولا مشت رجلي على كل عايبـه
نعم حب «وافي» صاب قلبي ومهجتي   زرع في خفيات الضماير عشايبه
زرعنا الفضيلة والوفى صار ظلها   مشينا بها والنفس يماه طايبـه

وأصبح الشعر رسولا بينهما يصور اللوعة ويجسد الحب وينبت ما يعانيانه من غرام فتكون من ذلك حصيلة هي أقصى ما يوصف به شعر عاطفي من رقة وسلاسة وحرارة وصدق بهجـة . .

تذكر لقانا بين الارطاة والغضى   وأنا وأنت بالرخم النياق عزيب
نرتع بنجد فراشـنا من ترابهـا   وعمن نحاذر بالسراب نغيـب

فيجيبها (وافي) :

رعى الله نجد وراع من هو يروعها   هواها لعـلات القلوب طبيب
عراره وشيحه من روايحك عطرها   لـو شمها الدرك المريض يطيب

ولم يعد هذا الحب سراً ولم يبق وقفاً على (شيمه) و (وافي) بل أنتشر حديثه وذاع خبره وبدأ الوشاة يزاولون وظيفتهم وبدأت المؤامرة على هذا الحب العف البريء تحاك من قبل عم (شيمه) المدعو (مغضب) — وأبنائه الثلاثة (الغادر) و (مزعل) و (مجرم) .

ياعمنا جتنا علوم تسيئنا   يقولون عن شيمه لوافي مصاحبه
ان كان هرج الناس ياعم صادق   لازم تعاتبها وحنا نعاتبه

وما ثمة من وسيلة يصل العاشقان بها حبل مودتهما ويقطعان وساوس المجتمع ويخرجان من إنتهازية العم مغضب وأولاده سوى الزواج.. ولكن هل هذا أيضاً في متناولهما؟ إن هناك جرماً في عادات القبيلة وهو أن لا تتزوج بنت العم بأجنبي ما دام لإبن عمها رغبة فيها وإلا فسيراق الدم أو تبقى الفتاة عانساً حتى آخر حياتها وهو ما يسمونه في عرفهم (التحجير) جريمة قبلية — ما أنزل الله بها من سلطان . .

فكان ما خشيه العاشقان وكان الأسى واللوعة ومرارة الحياة وهذا هو الجانب الأهم في القصة حيث تجسيد عقابيلها وتصوير مضارها . .

ياعمنا هذى علينا ظليمة   وافي وأبوه لبنت عمي يخطبون
حلفت لافعل ضد وافي جريمة   ويموت من يمناي بالحد مطعون
أنا بساعات الملاقي خصيمه   ومن ذل عن لقياه خايب وملعون

ويطول الحنين والأنين ويزداد الوجد ويدنف العاشقان وتذبل الزهرتان الناضرتان ويبلغ الأمر من (شيمه) مبلغه فتحس بالنهاية تسري في أوصالها فتستبق الموت في هذه الأبيات الشاكية الباكية المؤلمة :

ياوافي العراف وان جيت والدي   قل له شبابي جاير الغبن غاضره
وداع وقل له وسط قبري يحطني   شمال اللوى في سهله عند ناظره
ويزرع على قبري زهور تظلني   وابي عاذرات الريم دايم تناظره

وتسلم (شيمه) روحها إلى بارئها ويضج القطين لموت الفتاة العفة النضرة وتضج شاعرية (وافي) بالرثاء الباكي ويمثل حينئذ دور (مجنون بني عامر) يستحيل منه ذلك الشباب العارم إلى هيكل عظمي محطم ينتشر فوقه شعره المشوش وتواريه اطمار ممزقة خلقـــة . .

ولم يلبث وافي بعد حبيبته إلا قليلا حتى لحق بها ضحية غرامه وقربان حبه لتذال عليهما عبرات الشفقة ومجنحات الرجمة ولينطلق الرثاء .

ترى الوديا هل الود لو هو صفا ساعه	تجى ساعة تنحي المودة وتبعدها
مثل وافي العراف جرح الهوى لاعه	تغنر هواه وشيمة المجد فاقدهـــا
تغنر هواه وصارت النفس مجزاعه	على شيمة له خاطف الموت صايدها
تذكر هواه بوسط نجد ومرباعه	بوسط الفياض الخضر عينه تشاهدها
جزع واحترق والموت من عقبها راعه	فقد لذة الدنيا وهذى عوايدهـــا

وتنتهي القصة بذهاب أهل الغدر ضحية غدرهم ووقوع الظلمة في مغبة ظلمهم وتبقى العزة والشرف للنفوس المعذبة الأبية ولو كانت تحت أديم الأرض ويذهب الخزي والعار عالقاً باهله إلى الأبد . . وتظل قصة العاشقين (وافي) و (شيمه حديث المنتديات وعلالة السمر ونموذج الحب العف البرىء القاتل . .

هي مسرحية غنية بصورها مستوفية لأدوارها آخذة بمفاجآتها .. تمثل أول تجربة مسرحية هادفة لشعرنا الشعبي الأصيل . ويعتبر صاحبها الرائد الأول في هذا المجال ، وإذا رزقت هذه المسرحية من يمثل جميع أدوارها من البيئة وأخرجتها قدرات صناع فسوف ولا شك تأخذ طريقها إلى الشهرة وتتبوأ مكانة مرموقة . . فالدلالات التي تحملها جديرة بأن تهب لها أقوى مركز في عالم المسرح فهي من حيث الهدف والمدلول تعالج مشكلة إجتماعية مستعصية وتلقي الضوء على طبيعة (عرب الصحراء) وواقعهم وما يشدهم الى ماضي العرب المشرق . . وتعطي الدليل الواضح على أن لنا أدباً شعبياً حياً باستطاعته أن يجوس خشبة المسرح بكل قابلية ومرونة واحاطة وإدلال . .

وهي من حيث الشكل كائن متكامل لا ينقصه الإغراء ولا تعوزه الجدة والإبتكار لونت ونغمت قوافيها وصنفت مقاطعها وطعمت بشذرات الغزل ونفحات الربيع ومنادمة الأطلال وجنحات الخيـــال . . فانت منها ابداً في جديد تعيشه بكل لذة وجاذبية والـسجـــام . .

فهلم إليهـــا . .

عبدالله بن محمد بن خميس



المدخل

العرب ليسوا منفصلين عن بقية العالم ، انهم تأثروا ولا زالـوا يتأثرون بكل ما يجري من حولهم . أما سلبياً أو إيجابياً . فحركة التاريخ الممتدة عبر أجيال وأجيال دفعت بهم إلى الخارج وردتهم إلى الداخل وأجبرتهم على مواجهة التحديات وكانوا أهلا لها لم يهجعوا ولم يستكينوا حملوا لواء التوحيد عالياً . وكانت قلوبهم تفيض بالمحبة . فدكـوا حصوناً وماتوا تحت حصون . . وخيلهم تطارد الشمس من أفق إلى أفق .

كانت سجاياهم إنعكاساً لرحابة الصحراء . . فانفردوا بين بقية الأمم على قيم تبدو للوهلة الأولى طبيعية ومشتركة بين أقاليم الأرض وشعوبهـا .

وقد تكون هي كذلك إجمالا . . غير أنها إذا وضعت في إطـار التمعن فان لمعانها عند العرب يبدو جاهراً وفاتناً بل وغريباً . فالبخل والحرص الشديد على المال مثلا عند بعض الشعوب قد يبدو طبيعياً

أو منطقياً . . غير أنه عند العرب صفة مردودة لا يمكن أن تناقش .. حتى أن (فتاة الصحراء) الأصيلة قد تفضل الرجل الكريم على الشجاع البخيل ، وليس مبعث ذلك في أنها تريد منه أن يغدق عليها من حلاله ، وماله وإنما لأنها تريد منه (أن يبيض وجهها) . ومعنى ذلك أن يجعلها عزيزة . . ولا تكون عزيزة إلا إذا كانت دارها محطاً لرحال المحتاجين والوافـــدين .

نعم . إن العربي حينما يبذل فانما يكرم الأخلاق في شخص من يبذل لـه . . ويكرس فضيلة الايثار التي هي أشرف وأنبل خصلة قد توجد في أي إنســان .

كذلك الصدق عند العرب والأمانة والشجاعة والوفاء والحب الذي أقترن عندهم على الدوام بالعفة . حتى أنه من المستحيل في منطقهم أن يكون هناك حب بدون عفة . . أو عفة بدون حب . وما أكثر القصص التي تحكي عن عاشقين ماتا كمداً قبل أن يقترنا ببعضهما البعض وكانا مثالا للنزاهة والوفاء والعفـة .

ومن الأمور العجيبة عند العرب أن العاشق العفيف حينما يموت . يشيعونه ويترحمون عليه كما لو كان شهيداً . وهم في هذه الخصلة الشفافة السامية إنما بزوا جميع شعوب الأرض .

وإذا نحن تمعنا في هذه الخصلة فاننا نكشف من ورائها أكثر من معنى وهدف ، وموقف . فلاشك بأن النفس الانسانية أمارة بالسوء .

كما أن الأنسان ليس جماداً . وإنما بشر له صفاته وغرائزه التي وهبها الله سبحانه وتعالى له . . ليحافظ على جنسه ويحقق أهدافه . فالمغريات أمامه كثيرة والحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات .

فاذا كان الانسان عفيفاً في كل شيء . . أي عفيف القلب ، واليد ، واللسان ، والضمير . . فانما يكون بذلك قد حقق إنتصاراً باهراً على نفسه وروضها على الخير . . وجعل منها نموذجاً للإيثار والزهد والتضحية من أجل المبادىء السامية التي تفنى في سبيل أن يحيى الآخرون .

وقصتنا الشعرية هذه هي قصة وفاء بالدرجة الأولى . وهي في تتابعها وتلاحق أحداثها وصورها تبدو وكأنها أسطورة . . غير أننا يجب أن نرى مواطن المبادىء السامية . وما يكتنفها من جور ، وظلم ، وإنحطاط. وكيف أن الفضيلة مهما غلبت في بادىء الأمر فلابد وأن تنتصر غداً أو بعد غد بكيانها هي أو بامتدادها في نفوس الآخرين .

كما أن قصتنا الشعرية هذه . . إختصار سريع لمجموعة من (المفارقات الإجتماعية) – إذا جازت التسمية –

فصحراء نجد المحترقة بنار الهجير صيفاً حيث لا مطر ولا عشب . . وإنما رمال تسفوها الرياح . . وهضاب وسهول تمتد وتغرق في السراب.

صحراء نجد (المرتعدة) شتاءاً بصقيع البرد ، وهدير الرعود ، ونبض الوديان على صدر أرض تعطي كل ما لديها إذا منحتها السماء بعض قطراتها .

إنها أرض تشح حتى الأجداب . . وأرض تسخو بدون مقياس ولا تحديد . وهكذا هي منحت أبناءها كل ما لديها . . حتى الأسى والعذاب ، حتى الرحابة والإنطلا ق ، حتى السكون والهمس ، وحتى صيحة الحر الذي يموت سريعاً وطائعاً وغاضباً وهاجماً قبل أن يهان أو يصفع .

إنها منحت أبناءها بعض ما لديها من العناد والخشونة . . وأكثر ما لديها من الحفاظ على العهد حتى ولو طالت السنين . إلى أن تطاول أعمار الرجال والنساء .

إنها أعطتهم مدها وجزرها . وتعاقب الفصول عليها . . حركتهم هزمتهم ، طردتهم ، احتضنت حتى مواقــع أقدامهم ، وهياكل عظــامهم ووقفت في وجوه أعدائهم ، بل وحاربت معهم وساعدتهم على كل غازي . . كانت لهم أهلا حينما تصدمهم أمواج التحدي ، وكانت لهم حافزاً حينما تسوقهم المقادير .

صحراء نجد هي مسرحنا في هذه القصة . . وأبناء البادية هم ممثلوهــا . .

أناس لازالوا يعيشون في جو هو أقرب إلى الفطرة . والبراءة ، والمواجهة المباشرة التي بدأت تفقد إن لم تكن فقدت في أكثر الميادين بين الناس في علاقتهم مع بعضهم البعض .

إنهم بدو يتطلعون إلى الشمس أينما وجهت . . ينامون الليل وعيونهم تعد النجوم وتغزل الأحلام عليها . .

[شيمه بنت فاضل . . فتاة من علية القوم . . أشتهر أبوها بالكرم وحسن الطباع ، حتى أنه تبوأ في قبيلته مركز السيادة . وكانت الفتاة على قسط كبير من الجمال . . حتى أنها كانت محسودة من بين بنات القبيلة . . غير أن الجميع يعرفون عنها عفتها وطيب مسلكها . . وكثيراً ماقيل عنها أنها تحمل إسمها عن جدارة .

وفي الجانب الآخر من الصورة كان هناك فتى إسمه (وافي بن العراف) . يقطن مع قبيلته ، ويتجاور مع قبيلة (شيمه) . وبحكم التقارب ومواجهة المصاعب والأفراح معاً . أرتبطت القبيلتان بمايشبه (الحلف) .

وسمع (وافي) عن (شيمه) هذه . وأخذ يتردد على منزل والدها (فاضل) ولمحها مرات عديدة . فملكت عليه مشاعره ، وأخذت تلعب به التصورات العديدة .

وكثيراً ما جلس يحدث نفسه عنها بل ويناجيها . وفي يوم فاجأ أمه بسؤاله عن (شيمه) وكيف تراها .

ففوجئت الأم بما سمعت . إذ أنها لم تعهد من (وافي) سرعة التأثر بالأشـــياء ، كما أنه عزوف عن متابعة أخبار النساء . فتبسمت الأم بل وأخذت تضحك بصوت مرتفع . ثم نادت على العراف والد (وافي) وقالت له :

تعال وأسرع . اسمع إبنك . ماذا يقول .

فأطل الوالد من وراء البيت فرأى إبنه مرتبك وزائـــغ العينين ، فصاح به :

ماذا هناك يا (وافي) ؟ . لماذا أمك تضحك ؟ . .

[فازداد إرتباك (وافي) وخرج مسرعاً من البيت . فاعترضه والده وأمسك به وأعاده مرة أخرى إلى أمه التي لازالت تغالب ضحكاتها ، فنهرها زوجها برفـــق ، وطلب منها أن تخبره بكل ماحصل . فاستجمع وافي قواه وقال له . . لقـــد سألتها عن شـــيمه :

الوالد : ومن شيمه هذه ؟

وافي : إبنة فاضل .

الوالد : وماذا بهـــا ؟

وافي : إنني أسأل مجرد سؤال فهل في ذلك من شيء ؟

الوالد : أبداً ، ولكن لماذا أمك تضحك ؟

[ويستدير نحو الأم :

الوالد : لماذا أنت تضحكين ؟ هل تضحكين على شيمه ؟

الأم : معاذ الله . . ولكن وافي فاجأني بسؤاله الذي لم أتوقعه

وافي : أنا المخطىء . . ولو كنت أعرف ذلك لما سألت والدتي .
الوالد : يالك من متسرع ياوافي . . إنني لم أعهد فيك هذا التسرع .
وافي : هل أنا متسرع لأنني سألت عن شيمه ؟
الوالد : بل متسرع لأنك خطأت نفسك . . إن شيمه يابني تستحق من يسأل عنها . . إنها زهرة البنات . وخلاصة الحسن ومضرب الأمثال في أخلاقها . ولست أول من يسأل عنها ويعجب بهـا .

[ويسرح وافي بعيداً مع خياله تاركاً أباه يتكلم بدون أن يسمع منه كلمة واحدة :

«إنهم يسألون عنها بل ويعجبون بها كذلك . . ومن هم هؤلاء ؟ وكيف يجرؤن على ذلك ؟ إنها لي ، ويجب أن تظل لي وحدي ، ولن أمكن أحداً حتى من التفكير فيها . . ياهؤلاء « الأوباش » . لن أمكنهم . نعم لن أمكنهم »

[ويشد على أسنانه ، ويستعيد تمالكه على نفســه مــن هــزة يــد والــده القوية على كتفــه :

الوالد : إلى أين ذهبت ؟
وافي : إنني معكم . ولكنني متعب . . أرجوكم أريد أن أنصـرف .

[ويحاول الوالد منــعه . . غير أن أمــه تطلب من والــده أن يتركه وشــأنه فهــذا أفضل لــه .

ويخرج وافي وهو يعب من الهواء ، حتى أن صدره يكاد أن يتفجر ويذهب إلى حيث أصحابه يتسامرون ، فعله يجد هناك ما ينسيه همه ، وينسيه

هذا العناء الوافد الجديد – ولو بعضاً من الوقت –

ويعود إلى منزلهم متأخراً ، ويحاول النوم ، غير أن النوم أبعد عنه من تلك النجيمات التي يراها ضاحكة مترنحة بدون معنى .

ويتقلب في فراشه ، ثم ينهض ويسير وحده بين المنازل . ثم يعود مرة أخرى ، وهو لا يعلم ولا يدري كيف ولا ماذا يعمل .

ان هناك نوازع كثيرة تتكانفه ، وفي نهاية المطاف يعقد العزم على ملاقاتها وجهاً لوجه . . فربما كانت هذه الطريقة الصعبة هي أقصر الطرق . . وحينما توصل إلى هذه النتيجة غفت أجفانه قليلا . . غير أنه لم يلبث إلا مدة قصيرة حتى هب واقفاً . . ملتفتاً فإذا بوالده يتوضأ .

فغسل وجهه وأوقد النار وتوضأ . وذهب مع والده إلى حيث (الجماعة يصلون) .

وبعد أن أدى فرضه أسرج فرسه وتناول بضعة فناجيل من القهوة . وذهب إلى المكان الذي وصف له بأن (شيمه) ترعى إبلها فيه . .

كانت حوافر الجواد من تحته تنهب الأرض . . وكانت دقات ة تسابق الجواد بل وتتعداه . .

وماهي إلا فترة من الوقت لايعلم إن كانت طويلة أم قصيرة حتى وصل إلى المكان . . وهناك شاهد الإبل منتشرة وكأنها مجموعة من حجارة المرو الناصعة .

ولمح (شيمه) تخطر بثوبها الأسود ، وحزامها الأحمر . . وحيدة تغني بالأبيات التالية وكأنها ملاك هبط لتوه من الفردوس السماوي .

شوف الزهـر يعجبـني   وويـل الحيـا يرضيـني
وان هب الغربى ضحكت   وشـوف الدهـر يبكيني



قلـبي يحـب الطيـب   مـتى تشـوفه عيـني

[فامسك بفرسه الذي راح يخب ثم أخذ يمشي رويداً رويداً حتى أقترب من (شيمه) ثم توقف . . وسلم عليها . . ونظرت إليه متعجبة من هذا الذي لم يسمح لنفسه حتى من الهبوط من على صهوة جواده . . وقالت في نفسها ياله من فتى متكبر مغرور . . وفاجأها وافي :

هل أنت (شيمه) إبنة (فاضل) ؟ .

شيمه : ولماذا تسألني ؟ .

وافي : أعذريني من سؤالي إذا كان غير لائق . أو ليس في موقعه ولكنه مجرد سؤال . . وعليك أن تجيبين عنه أو ترفضينه .

شيمه : ولنفرض أنني شيمه . . فماذا تريد بهـا ؟ .

[فتنهد وافي بصمت وجاوبها :

يازين أنا جيتك على سرج قبـا   طويلة السمحاق زينـة مقـادي
وداع الهوى من يمك اليوم هبـا   واجتاح يا المملوح بسرة فـوادي
أنا لعـلم الخـبر منك أتنبـا   إهرج لنـا بالله هـرج الـودادي
جيتك وأنا عن كل أهلك أتخبا   جيتك وحاديني من الـود حـادي
من كل خلق الله لك القلب حبـا   ومن شانكم يازين تعبت جوادي
وخليتهـا بالكـود يمـك تخبـا   تاطا الوعر هو والسهل بالأيادي

[وانساقت شيمه مع إبلها دون أن ترد على وافي الذي لكز جراده وأخذ يصعد به دون وجهة معينة .

[رجعت – شيمه – إلى منازل قومها بعد أن توارى قرص الشمس ، وادلهم المساء . . وليس لها من تفكير سوى هذا الفارس الذي إقتحم عليها سكينتها ، وجندلها صريعة الهوى قبل أن تجرب الحياة .

ومر عليها ذلك اليوم ولم تذهب إلى المرعى رغم إلحاح والدها . . فقد كانت تعيش كالحالمة التي لاتعرف كيف تتصرف في نفسها .

وفي صباح اليوم الآخر استعادت طبيعتها محاولة نفض كل ما علق بنفسها من طوارىء ، وأخذت تتصرف وكأن الأمر طبيعي أو أنه لا يعنيها .

وبدلا من أن تذهب إلى مرعاها بالأمس الأول توجهت إلى منطقة أخرى . . ورغم ذلك . . ورغم أنها لم تمكث إلا مدة قصيرة شاهدت جواداً يهبط من تلة مواجهة ، فعرفت من شكله أنه لذلك الفتى الذي فاجأها قبل يومين . فحاولت أن تصد وأن تبتعد غير أن الجواد لحق بها وسار بمحاذاتها ، فتمهلت حينما رأت (واني) يهبط من على ظهر جواده ويطلقه ليرعى في العشب الكثيف . .

سلم عليها وافي . . فردت عليه السلام باقتضاب ثم سألته بسرعة . بالله عليك . ماذا تريد مني وأنت تطاردني من مكان إلى مكان ؟ . ماهو مقصدك ؟ إني أرجوك أن تتركني بحالي فلست ممن تستهويهم حلاوة الكلمات :

وافي : ليس لي مقصد سيء ياشيمه ، ولك أن تعرفي أنني لم أحث ولا سألت ولا أعجبت بفتاة بقدرما أعجبت بك.. لأنني تصورت وأتمنى أن يكون تصوري صحيحاً .أنك المثل المتألق الذي أموت وأحيافي سبيله.

شيمه : لأول مرة أنا أسمع مثل هذا الكلام العجيب . من إنسان أكثر عجباً . . يا أخي . إنني لم أرك من قبل ولا سبق لنا أن تعارفنا فكيف يكون هذا التأثر الذي يصل إلى حد الإعجاب . . عليك أن تزن كلماتك فربما كنت واهماً . . أو غلطاناً تصورتني فتاة أخرى .

وافي :

قبل أمس جيت أطلب ودادك وصديت
وش فيك للقلب المعذب تغيضي
عز الله أنـي بالموده تماديت
ومن سبتك يازين قلبي مريضي
أرقف بجاه الى فرض حجة البيت
أبيك ترحمني وعندي تريضي
شف عبرتي يازين عقب التناهيت
شف دمعة من فوق عيني تفيضي
لولاك ما تعبت نفسي ولا جيت
غثني بفضل إرضاك وأرحم جضيضي
شف حسرتي شف لوعتي والتناهيت
ومن شان حبك جيتي وتعريضي

[وتأثرت – شيمه – مما سمعت . . وأخذت ترفع بصرها نحو وجه واثق الذي بان عليه التأثر . . فابتسم لها . . وبادلته الإبتسام بحياء وتردد . . فأشار لها بيده مودعاً . . فرفعت يدها وكأنها تبارك العهد الجديد .



[والتقى الإثنان في صباح اليوم الباكر وكأنهما على موعد محدد ، تحفه الثقة من كل جانب ، ويواكبه الصدق أينما توجه .

وبدون أن يسلم قال لها وافي :

يا بنت أنا جيتك على الرجل حافي مع قفرة يضيع فيها الدليله
بالله ياراع الثمان الرهافي نبي لي إسمك يا عنود الجميله

[فتحيرت شيمه من هذا السؤال . . لأنها تجزم أنه يعرفها جيداً ، ولولا ذلك لما تابعها وأصر عليها . . غير أنها تكهنت بأنه يداعبها ليزداد تأكده بأنها قد أطمأنت إليه . . فردت عليه بصوتها العذب المنخفض :

أنا الذي سترى مع الناس ظافي ولا شفت حي وافي نلتجي له
الإسم شيمه والشرف لي الحافي وبوي فاضل له مقام وقبيله

[وهنا كان لزاماً على وافي أن يعرفها باسمه من باب اللياقة ، وأيضاً لكي يظهر لها حسن مقاصده :

يا بنت أنا العراف والإسم وافي وأنت وأنا نمشي بدرب الفضيله
عليك أمان الله والرب كافي ولا خاب عبد صار ربه كفيله

[فازدادت إطمئناناً وبدأ ذلك واضحاً على وجهها الذي كسته حمرة الخجل فبادرته وهي تبتسم :

أنـا بقلـبي للفضيلـه مـلافي وراع الوفـا حق علينا نجيلـه
حيت يا وافي بعـد كـل وافي حيت ياراع العـلوم الجميلـه

[فصمت وافي قليلا ونظر إليها ، فاذا هي تتلفت شمالا ويميناً . . فعرف أنها قد همت بالمسير خصوصاً وأن الشمس قد قاربت المغيب . فساقت نياقها وحدرت بهن عبر شعيب ممتلىء بالشجيرات اليابسة وأخذ يراقبها حتى غابت عن ناظريه . ولم يعرف أمكث ساعة أم دقيقة أم سنة .. ؟ فقفل عائداً إلى مضارب قومه . يطويه الليل البهيم . . ويحمل هو في صدره ألف ليل وليل .

وأقترب من منزلهم فاستقبله كلبهم بالتمسح حول ركبتيه التي ما عادت ركبتيه من شدة التعب والعياء .

فرفع طرف الرواق ودلف إلى داخل البيت وكان الجميع نياماً . فحسدهم في قرارة نفسه . . ولكنه عاد يتساءل :

«كيف ينام هؤلاء القوم وشيمه بعيدة عنهم . ؟
كيف يحلو لهم عيش وهم لا يرون عينيها . . ؟
كيف يلفهم الأمان بردائه وهم لايستانسون بابتسامتها التي أرخصت عنده كل غالي . . ؟»

إنه لايحسد هؤلاء القوم ولكنه يرثى لهم ويأسف على حالهم . وفي أثناء تساؤلاته هذه استيقظت والدته . . وأستغربت لوقوفه . وحثته على النوم فالليل في آخره . . والنهار يطلب مزيداً من العمل . وقذف بنفسه على الفراش أو على الأرض . . إنه لايدري . فكل الأشياء في هذه اللحظة قد تساوت في خاطره . . لم يعد للمغريات في نظره فارقاً أو قيمة .

«وكيف يكون لها فارق . . وسيدة المغريات بعيدة عن ناظريه
لله ما أصغرك أيها العالم حينما تقفل بابك في وجه الإنسان .. ولله ما أكبرك أيها العالم حينما تفتح بابك لانسان . وتشير إليه بيد صارمة :

تفضل إنك مطرود . . إبحث عن نفسك تجدها أو ابحث عن حياتك وسط المصاعب .

ان العالم الطبيعي هو الذي لا يوصد الباب نهائياً . . ولا يفتح الباب نهائياً وكأنه يقذف بأبنائه في جوف الغربة والضياع .

ولكن العالم الطبيعي هو الذي يترك الباب مردوداً وعلى الإنسان أن يفتحه إذا ما أراد أن يهاجر . .

ترى ، كم في هذه الدنيا من إنسان يقف خلف الباب عاجزاً عن الخروج ؟؟ وكم من إنسان خارج الباب عاجزاً عن الدخول والعودة ؟ »

[ولأول مرة في حياته يشعر بالخوف الحقيقي . . حقاً إنه حينما كان صغيرا ، كان يخاف من الوحدة أو من الأشباح التي كثيراً ما سمع حكاياتهم من عجائز القبيلة . . اللواتي يحلو لهن الحديث عنها . . كلما حل خطب بأحد . . أو سرت إشاعة غامضة عن رؤية خارقة لا يستطيع أحد تفسيرها

ولكنه الآن يرتجف . .

وبدأ يتعجب من هذا العرق الذي يتصبب من جسده وهو في هذا الجو القارس :

« هل هي الحمى التي يتحدثون عنها . .

ولكنني صحيح . . إنني لا أطلب لحافاً ولا زاداً ولا شراباً ولا دواء إنني أطلبها هي وحدها فقط .

فهل هذا كثير ؟؟ . .

ما أكثر الهواجس . وما أسهلها على القلب العاشق . . إنها تغزوه مثلما تغزوا جحافل النهار فلول الظلام في أول السحر . »

[وعاوده الخوف مرة أخرى . . بل وتركز في حنايا صدره ، في شرايين قلبه . .

إنه لايخاف على نفسه بقدر ما يخاف عليها . . لولاها لما حسب لهذه الدنيا حساباً . فكم من المخاطر والتحديات خاضها بدون أن يرف في عينيه رمش أو يلين على جنبه ساعد .

إنه كفيل بمن يقابله وجهاً لوجه . . ولكنه كيف يتحرك وألف وجه من المحتمل أن ترمقه في الظلام :

« يا إلهي . . إنني أحبها . وحبي لها خالد وأكيد بقدر ما تكون هذه النجوم وهذه السماء . .

فهل أفرط فيهـــا ؟ . .

وهل يملك الإنسان أن يفرط في نفسه إلا يائساً أو مجنوناً . . وأنا لست بيائس لأنني مؤمن . . ولست بمجنون لأنني عاشق . . وعاشق الحسن لا يفرط في أي شيء جميل . .

فكيف أفرط بمن كان الجمال مقراً في كيانه ؟ . »

[استيقظ الجميع أفراداً على صوت المؤذن يدعوهم للصلاة . واختلطت الأصوات بثغاء الأغنام ورغاء الإبل . فتسلل من مكانه إلى حيث أباه قد أوقد النار . فشعر بصهد النار يسري في عروقه ، يحرقها أكثر وأكثر . وتناول (المعاميل) يحمس القهوة ويزيدها (هيلا ومسماراً) ليكتوي بحرارتها وليروض نفسه على الشجن .

وازداد القادمون وتكاثروا واتسعت حلقة الرجال حول الموقد . . وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث . وكله يدور حول أفضل المراعي . وأسهل الأراضي ، وأخبار المطر والسحاب . . وكان وافي معهم بجسده غير أن روحه بعيدة إلى حيث لا يعلمون .

وفجأة انسل من عندهم كمن تذكر شيئاً . . وأخذ يتمتم بينه وبين نفسه وقصد إلى بيت ليس ببعيد عنهم حيث يقطن صديقه (مرضي) وسأل عنه فلم يجده وقفل عائداً غير أنه لمح مرضي متجهاً بإبله صوب المراعي . . فناداه بالصوت . . وتوجه نحوه . . وبدون أن يسلم عليه بادره قائلا :

أنا شفت يا مرضي عنود من المها | لها القلب من بين المعاليق طاير
غزال سلبني باغنزاله وأجادني | نهب عقلي الوافي وظليت حاير
وحرمت صيد الريم من شان خاطره | ولا نيب يا مرضي للأروام ذاير
علشان مسلوب الحشا كامل البها | وأنا منه يا مرضي بي الحب جاير
أنا من بنات البدو مارمت غيرها | عليها فوادي بين جنحان طاير
أنا أشكي عليك الحب والحب جادني | تجرعت كأس الحب والقلب فاير

[ويفاجأ مرضي بما سمع من صديقه . . فهو يسمع عن (شيمه) . . فصيتها أصبح مشهوراً بين القبائل . . غير أنه يعرف ما يكتنفها من ظروف تجعل الإقتراب منها صعباً إن لم يكن مستحيلا .

ويتأسى لحال صاحبه . غير أن على الصاحب أن يكون صادقاً مع رفيقه حتى ولو كان رأيه جارحاً . فالتمنيات شيء ، والواقع شيء آخر ويشير مرضي له بيده ويقول :

أبا أنهاك يا وافي وبين لك الخطا | ترى العشق بأسبابه تشوف الحساير
تراه يدمي بالقلوب وينتهي | بغبن تجرع فيه مر العباير
تعرض لك الأنجاس من دون عشقتك | وتصبح من الفرقى غليل الضماير
العشق يا وافي يسبب لك الشقا | وتدور بك وسط الغرام الدواير
تدخل ومدخاله على القلب هين | وتكبر بمظهاره عليك الصغاير
ترفق ترى شكواك منها تكسرت | ضلوعي ولبست الضلوع الجباير

[ويصاب وافي بصدمة بالغة . . فهاهو صديقه الذي يركن إليه ، ويطلب منه العزاء . . يراه يتهاه ويحذره . فهل بعد هذا من عزاء ؟ ؟ .

ولكن . إنه لايطلب عزاء لأنه ليس ضعيفاً . . ولكنه يطلب فهماً لأنه محتاج . . والحاجة تكون نقيضة للضعف . . خصوصاً حينما تكون صادرة عن زاهد .

فمن أين له بمن يكرسون غرامه . . ويباركون مشاعره المنطلقة نحو آفاق بعيدة في سموها وصفائها .

ومثلما بدأ . قفل عائداً بدون أن يسلم أو يودع صاحبه . . وتمنطق بسلاحه وساق إبله نحو مكان لايعرف أهو الذي يريده أم المكان هو الذي يدعوه .

وفي نفس المكان استرجع النظر مرة ومرتين . غير أنه لم يشاهد أحداً ودار حول نفسه . وحول المكان . . ودارت الأرض . . ودارت الشمس.. ودار الزمان والوقت وأنتصف النهار . . وزال النهار و (شيمه) كأنها غائبة عن الوجود وأنشد يقول :

جيت المكان اللي به الزين وافيت	**صافي الجبين وسيد تلعات الأرقاب**
جيته وهليت العباير ونيت	**وقفت به والدمع بمطر وسكاب**
وأصيح بأعلى الصوت عقب التناهيت	**وبقيت أدوج فيه لين الشفق غاب**
ولا لقيت إلا الحوازى مصانيت	**وتركتهن من شان وضاح الأنياب**
وعويت من جور العنا ثم ونيت	**ولجلج صداها بين شعبان وهضاب**
على الحبيب اللي لشوفه تشافيت	**اللي من أسبابه شعر عارضي شاب**

[وفي مكان آخر من العالم قصي . . كانت هناك بيوت متناثرة أستمدت لونها مع تكرار الليالي وطولها وكانت النيران المشتعلة جمرات تكوي صدر الأرض التي قتلت أبنائها بالحب وأحيتهم بالأماني وصبا نجد ، ورائحة الخزاما والسفر البعيد نحو ربيع يتجدد .

فأين منهم الربيع . . وهذه الأرض لاتنبت غير الشوك في قلب شيمه . . التي قالت :

ان غاب وافي كل شيء معه غاب والروح من بين الضماير سلبهـــا
وان كان شفته فزت والنوم لي طاب وفرحات قلبي صاحبي هو سببها
للعين في بعده عن النوم حراب وقربه دوى عيني وبعده غضبها
قلبي يحبه لو نحى يم الأجنـــاب تفداه روحي لو حبيبي نهبهـــا

[وهل يستطيع وافي أن ينهب روح شيمه . . ؟

هذا ماتتمناه هي . . ولكن هل يروي العطشان كثر التمني .

وتنهض (شيمه) من مكانها وتلتفت وإذا بأمها من خلفها ترمقها

بعيون تفيض حباً وشفقة وتساؤل ، وتنكس رأسها . . وتهم بالإنصراف . .
غير أن أمها تستوقفها وتسألها :

الأم : أشوفك يا بنتي تروحين للفلا
ونجين يا شيمه من البر شاحبه
علامك وما بك خبريني بما جرى
وأنا من عناك اليوم يا بنت تاعبه

شيمه : أنا أروح وأدله مع الريم خاطري
ألعب كما جماً مع الريم لاعبه
وأشم الهوى في نجد وأقطف من الزهر
ولا مشت رجلي على كل عايبه

الأم : أنا أسمع كلام الناس يا بنت فاضل
يقولون لي نفسك من الحب ذايبه
يقولون شيمه حب وافي سطا بها
ويقولون لي حبك على القلب صايبه

شيمه : نعم حب (وافي) صاب قلبي ومهجتي
زرع في خفيات الضماير عشايبه
زرعنا الفضيله والوفا صار ظلها
مشينا بها والنفس بماه طايبه

الأم : أنا أخاف يا بنتي تغضب قرايبك
وتذوقين من بعد النعيم جحيم

ويقولون بنت العم شيمه بحجرنـا
ولـيـا دروا وافي يصـير خصـيم

شيمه : مابى بني عمي ولا أريـد سـلمهم
أنـا أريـد ممـدوح الخصال كـريم
أحب أنـا العـراف وأحب قـربـه
ولا لي سـواه من العبـاد نـديـم

الأم : دنياك ما تـدرين عن سـر غيبهـا
وبأولاد عمـك مـا يعـد حـلـيم
أنا أخاف من غدر الليالي يحيط بـك
وبا الجرم مجرم لك يصـير جـريم

شيمه : أنـا أعوذ بالرحمن من كل حاسـد
إلـه على كـل العبـاد عـظـيم
ولا خـاب من يـزبن ذراه ويلتجي
بحـماه عـن غضبـات كـل ذمـيم

[وفي صباح يوم بارد التقيا جميعاً . فبادرته ، (شيمه) :

يا وافي العـراف صـديت عنا وأنا عليك دموع عيني تجـارن
يا ما سـهر طـرفي ويا ما تمنـا والقلب تاق بضـامري عقب ماون

[فرد عليها (وافي) بما يشبه النواح :

عليك يا شيمه دموعي جرنـا وعويت لين أن الضواري تعاون
عويت وسحيان الضواري عونا وعلى ونين القلب جن يتعـادن

[وبعد هذا الرد السريع هدأت شيمه قليلا وغيرت من ملامها بالشجن والبوح الصادق :

ما جور يا وافي لعلك تهنــــا   قلبي ضحك لك قبل مايضحك السن
ليتك قريب الدار وابوك منـــا   وليتك ولد عمي وأزورك بلا من

[فأسقط هذا الكلام في يد وافي . . حيث أنها ضربت على وتـر حساس ، ففي عادات القبائل في نجد أن الفتاة إذا كان لها أبناء عمومة . . فهم مفضلون على غيرهم في الإقتران بالفتاة . . وإذا أتى غريب يخطب الفتاة فان أبوها يأخذ أولا موافقة أبناء عمها ،فاذا وافقوا زوجها . . وإذا أعترض أحدهم طريق هذه الخطبة فان الفتاة تظل معلقة إلى أن ترضخ أو يرضخ هو أو تموت .

وكان صعباً على وافي أن يرد بهذه السرعة على هذه النقطة التي فوجيء بها . فقال يتغزل بفتاته :

يا عـود ريحـان على الما تثنـا   ريح الهبايب يقبلن بـه ويقفن
عليك قلبي بالضمايـر معنـا   وسهوم نجلك صوبني ولا أخطن

[وبعد أيام من لقائهما السابق يشاهدها فيقترب منها وهو أكثر جرأة واطمئنان ولهفة :

سلام ياراتع بخد بيـاحي   سلام ياللي علق الروح بالروح
يا بنت فاضل عمك القلب شاحي   يكفخ كفيخ الطير وان طالع اللوح

[فردت عليه :

حييت يا وافي صباح ورواحي   عيني تراعى فيك والقلب مفتوح
غلاك في وسط المعاليق جاحي   وزودت قلبي يابن الأجواد بفروح

[ولعبت الوساوس في صدر وافي .. وأراد أن يختبرها ويعرف مداها .. فبادرها متغزلا .. وهو يرمي إلى بعض المقاصد :

نهت قلبي يا ضبي البياحي ... عاي منك ألقى محبه ومصلوح
يا شيمتي يا سيد كل الملاحي ... أنا على الغر المعاسيل مشفوح

[فامتقع لون شيمه وعز عليها أن تسمع مثل هذا الكلام من الإنسان الذي تصورته كاملا من الصغائر . فتراجعت للوراء قليلا ثم خاطبته :

كان أنت يالعراف للهرج صاحي ... خل الهوى من بيننا هرج وامزوح
وان كان لك بم الرذيله مشاحي ... أبعد ورح عني وأنا عنك أبروح



[أفترقا وفي نفس شيمه بعض الأثر مما سمعته . وشد أهلها الرحال .. وأنتقلوا من ديار إلى ديار . . إلى ديار . . وصورة وافي لاتفارق مخيلة (شيمه) وكثيراً ما تغنت به على البعد .. وسهرت الليالي ترقب السماء وتدعو أن يعجل الله باللقاء . . وكان الله لطيفاً وكريماً . . وشاءت الأقدار أن يجتمعا ولكن بعد عام كامل . . مر وكأنه دهر طويل .

ولم تصدق شيمه عينيها حينما رأت فتاها وافي . . وتصورت أنه على البعد قد سلاها فبادرته قائلة :

نسيت يا وافي هوانا من العـــام ونسيت معنى هرجتك عقب تسليم
راع الشرف ماهو على العرض عزام يخاف يلحق جيب ثوبه مثالـيم

[وكان كلامها يحمل من بين طياته رغم الشوق والحب – عتاباً رقيقاً.. فهي لم تنس كلامه الذي قاله لها في آخر لقاء لهما في العام الماضي .

فنكس رأسه قليلا . . وعرف أن محبوبته عالية المقام وصادقة حينما تتكلم فرمقها بعين حزينة وقـال :

عليك يا شيمه غدى قلبي أقسام حبك يتل القلب وأجهم محاهيم
وعلى فروق الصيد عذبت الأقدام القى مثل حلياك وأركض مع الريم

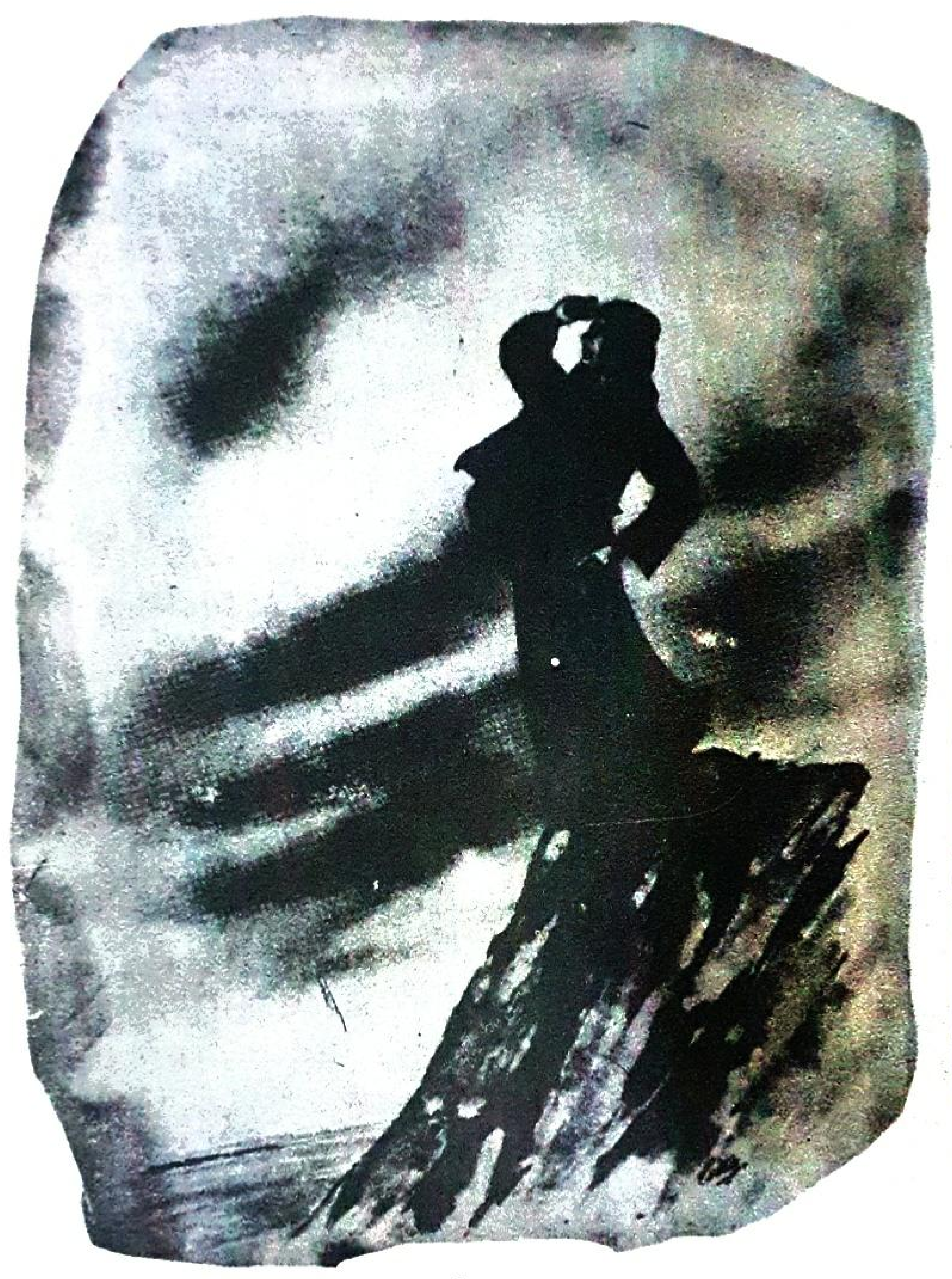
[فهدأت شيمه قليلا واسترسلت :

وأنا عبك صابني ولف وهيـام وأنا صغيره مير هذى مقاسـيم
عليك قلبي بدل المشي درهـام وأرقى طويل الحيد وأشرف مع الغيم

[فارتاح وافي . . وعرف أن رفيقته قد صفحت عنه وفهمت أن مقصده كان نبيلا وأنه لايضمر إلا الوفاء والحب الطاهر الذي لايرقى له شك . . فاقترب منها قليلا وقال :

يا زين يا سيد المها بدر الأظلام وافي عليك من العنا يشكي الضيم
قلت آه من طول الليالي والأيام الله على حبة ثمـان منـاضـيم

[فتضحك شيمه وتنطلق هاربة وهي تصيح له على لقاء في اليوم التالي . . (إذن إلى غد . وغداً لناظره مثلما يقولون قريب) .





« خفف من غلوائك ياوافي . . أنت تطلب وطلبك صعب . ولا أمل لك إلا بأن تقف على قدميك جيداً . ولا تحني رأسك للعاصفة . »

[تنهد وافي بعد هذا الحوار الذاتي . فالتقط غصن شجرة يابس وأخذ يعبث به . وكأنه يخطط لمستقبله الذي لايختلف كثيراً عن تلك الخطوط المتعرجة والمتقاطعة التي رسمها على الأرض بدون شعور منه ولا تحديد .
وكمن لدغته أفعى قذف بالغصن بعيداً وأخذ يقفز ويضحك . .

« إذا كان العالم يقف في وجهك . . لماذا لاتدير له وجهك . أنت ؟ »

ويشعر بسرور غامر يتملك نفسه حينما وصل إلى هذه النتيجة السريعة السهلـة .

« ولكن إلى أين تمضي . . ؟
نعم إلى أين تمضي . . ؟
أليس في هذا الكون من عالم آخر ؟؟
قطعاً هناك عوالم كثيرة . . ولكن المأساة تكمن في أن شيمه واحدة .
لماذا أنت واحدة ياشيمه ؟؟

[وفوجىء بهذا السؤال يخطر على ذهنه . . فاستسخف نفسه . . ولكنه أردف :

« إذاً لماذا أرى صورة شيمه مرسومة على وجه الظبا وعلى صفحات (الخبارى) ؟ وعلى قرص الشمس في يوم ضبابي . . وعلى كل الأشياء الرائعة والجميلة .

لماذا تبدو لي في منامي ويقظتي ولكن ماذا تستفيد من هذه الإفتراضات وإلى أين تقودك ؟؟ ، إنك كأنك تسير بين رمال متحركة .. إذا لم تكن محترساً وواعياً . . أبتلعتك الرمال . »

[ورجع عائداً إلى أهله ويده خالية الوفاض من الصيد والرصاص في حزامه لم تنقص منه واحدة . . وعلى محياه ترتسم علامات الرضى على أية حال :

« فلازال في الوقت متسع . »

[قالها وهز رأسه مبتسماً . .

وواجه أول ماواجه صديقه (مرضي) الذي أخذ يسأله عن أخباره وأحواله ووافي يصده برفق . . ولكن مرضي تمادى في سؤاله ، فانفجر وافي في وجه مرضي صائحاً :

« وماذا تريد مني بعد أن قدمت لي أعظم النصائح . . هل تريد أن أقول سمعاً وطاعة يامولاي . . أنت تنصحني . . وأنا أسمع وأنفذ ؟. إنك واهم يا (مرضي) . . وفي أحسن الأحوال أنت جاهل لأنك لم تجرب الحب يوماً وإذا جربته فأنت لم تحترق بنيرانه . إننا حينما نحب فاننا نقدم أنفسنا ضحايا لمن نحبهم . . ولمن نتوسم في كيانهم رجعاً لآمالنا التي بنيناها بدموعنا ودمائنا في كل يوم وساعة . فكيف إذا كانت

من أحبها هي (شيمه) التي تحمل في جوانحها أشرف الخصال وأروعها.

نصائحك لاتنقذني ولن تنقذني . . وإنما تزيدني هماً في وقت أحتاج فيه إلى الفرح . »

[وكان مرضي صامتاً متهدل الأوداج . . يقلب بصره في كل شيء إلا وجه وافي . . وكأنه خجلان أو خائف من مواجهته . وتمتم بكلمات تحمل الأسف ولا تعترف بالخطأ .

وبدأ صوته يعلوا :

« إنك ياوافي أبتعدت عنا نحن أصدقائك فلم نعد نراك إلا قليلا . . والناس بدأوا كلهم يتحدثون عن سلوكك الجديد هذا . . وأنت لاتعرف أنني لا أرضى عليك كلاماً . . وكثيراً ماذافعت عنك وكدت أشتبك بالأيدي مع كل من ينتقدك . .

إنك تحمل من المزايا والصيت أكثر مما نحمل . . حتى الصيد الذي كنت تأتي في كل يوم محملا به . . أصبحت تأخذه عذراً في رواحك ومجيئك . حتى أن الجميع باتوا مستغربين كلما عدت ويداك تصفقان للريح .

أنا لا ألومك على حبك . . فكل الناس يحبون . . أو قل أكثر الناس يحبون ولكن أكثرهم أيضاً يفكرون . . علينا أن نفرق في حياتنا بين ساعة العقل وساعة القلب .

إنك جعلت من القلب في منطقك كل شيء . . وأصبحت متهماً بين الناس بسوء التصرف . . ولن تجني بعد ذلك إلا الندم »

[وكان وافي طوال هذه المدة مشدود الأعصاب . . وكأنه على حافة التشنج الكامل فقاطع صديقه وهو يشد على مخارج ألفاظه :

« أسمع . . أسمع . . كلماتك لن تقتلني . وإن كنت أعرف أنها مخلصة . كلماتك لن أقبلها ولن ألومك عليها .

إنني لا أطلب المستحيل . . كما أنني لا أقبل بالواقع . قد تقول لي عليك بالممكن . ولكن على أي أساس أنت تساومني ؟ .

هنا يكون السؤال . . وعليه يكون الجواب محدداً . . وقاطعاً كحد السيف . . وإذا لم يكن كذلك سقطت في نفس الواقع المائع . . هل تفهم لن أرضى على نفسي ذلك »

[قالها وهو يخطو إلى الأمام تاركاً صديقه مذهولا .

وفي نفس المكان . . وقبل الموعد المحدد . . يصل وافي بقامته المديدة . . وعيونه الزائغة . . وخطواته الواسعة السريعة . . وكأنه يسابق الطريق .

ثم توقف :

« هنا جلسنا ـ هنا تكلمنا . . هنا تبسمت وألتفتت حول نفسها . . هنا دار بي العالم بدون أن أسقط . . إذاً هنا نهاية الطريق »

[وجلس على الأرض .. ثم تمدد .. وكأنه متمدد على كرسي سليمان ومر من الوقت قليل . . فوقف مرة ثانية ونظر إلى ظله :

« يا إلهي إنها لم تأتي بعد . .
إذاً لازال الطريق مستمراً ولم يتوقف .



وهل يتوقف الطريق ؟؟ .
اليوم . . أو غداً . . أو بعد ألف عام .
هل أنا الطريق ؟ أم أنا خطوات على الطريق ؟ .
ولكن كيف أخطو نفسي . . ؟ ونفسي تخطو إلى شيمه . .

ماهذا التفكير ياوافي . . ؟ إنك تخرف . دع المقادير تجري حيث شاءت واغتنم من حياتك ساعة بجانب شيمه »

[وتحرك من جديد وارتقى ، تلا قريب . وأخذ يحدق بالأفق فلم ير غير قطعان من الظبا ترعى وتتلاعب . .

فخطرت في باله فكرة . . لماذا لايبني هنا (رجم) يخلد ولو إلى حين لقاءه بشيمه . وفعلا بدأ يلتقط الحجارة ويكومها . وينسقها حتى بنى (رجماً) طويلا يشاهده القادم من مسافة بعيدة . . ثم جلس تحت رجمه يستظل بظلاله .

وفجأة سمع وقع حصاة تسقط بجانبه ، ثم أعقبها ثانية ، فوقف متلفتاً وإذا بشيمه تضحك وتخاطبه :

أبعدت عنا يا بعد كل مخلـوق   وأبطيت وعندي صار شوفك شفافه
عليك قلبي من محانيه مشلـوق   ما غـيرك أحـد بالمخاليق شـاقه

[فتراجع وافي للخلف قليلا — وقال :

لو رحت قلبي عندك اليوم ماسوق   يا زين عندك مبهمات حـلاقـه
ما شاقني غيرك مع الناس معشوق   وقلبي لغيرك ما يعرف الصداقه

[فهبطت شيمه من التلة وهي تقفز . . ووافي من خلفها . . وكأن الدنيا لاتسـعه وأجابته :

القلب يا وافي من الحب مرهوق وجسمي نحل والقلب غاد حراقه
ان مت وسع جال قبري عن الضوق وحط النفل هو والخزاما رواقه

[فجفل وافي من كلماتها الأخيرة . . وتمنى لو أن الأرض انشقت وأبتلعته ولا يسمع هذا الكلام العجيب . . فقال لها وكأنه يتوسل :

يازين شف دمعي من الموق مدفوق وأخذت قلبي ياعشيرى سراقه
أفديك أنا بالروح ياعز مخلوق يامن فراقي من سبايب فراقه

[فتكاد شيمه أن تبكي من فرط التأثر . . وترجو من وافي أن يكف . فالصمت في بعض الأحيان أبلغ دلالة من أكثر الكلام . ويسيران جنباً إلى جنب دون أن يكلم أحدهما الآخر . . وكانت شيمه تغالب عبراتها ووافي يسبح في بحور لا أول لها ولا آخر .

ثم يقتربان إلى حيث إبل شيمه ترعى فتسأله ان كان يريد حليباً . . فيهز رأسه إيجاباً فتتقدم وتحلب له (مسوحاً) فيشرب . ثم تشرب هي . . وتقطف له مجموعة من الأزهار وتقدمها له فيأخذها ويضمها إلى صدره ويلتفت لها هامساً :

يازين في قلبي تهاوت جروحك عالج جروحي ياالطبيب المداوي
يازين لفن بين قلبك وروحك كان أنت يالمملوح ترحم وتاوي

[وتبدو علامات التعجب على وجه شيمه فترد عليه :

ياردي عزمك كان هذي شبوحك وشبك على درب الرذيله قصاوي
وشبك تبي تنثر بكفك صبوحك وتبي تعرضني للدرب البلاوي

[فيتبسم وافي ويستمر في مناجاتها :

ياظبي رخص لي وبرتع بسوحك   ان كان قلبك مثل قلبي شفاوي
يازين كادتني مراقي صروحك   مدري على أية حال ويش أنت ناوي

[فترد عليه ولازالت علامات الجد بادية على محياها :

ان كان هذي من عجايب مزوحك   فأنا لقربك ياعشيري رجاوي
وان كان خطيت الرذيله بلوحك   ماظنتي قلبي على الشين قاوي

[فيتأثر وافي ويلتزم الصمت . .

فتندم شيمه على مابدر منها ، فقد أحست أنها قست على وافي أو أنها بالغت في تصوراتها . . فتجلس على صخرة كبيرة . . ووافي جالس في مواجهتها . . فتحوطه بنظراتها وهي تقول :

دورت وين أهل الوفا لين كليت   وهليت من جور العنا عبر تللى
واليوم شفت اللي على وصلة أشفيت   أنت الحبيب اللي بشوفك تسلى

[فيتراجع وافي عن سكوته :

أهلا عدد من حج وأطاف بالبيت   ياللي بوده صاب قلبي وتللى
ياغالي عندي لقربه تلاجيت   يامن سلب عقلي بزين التغلى

[فترتاح شيمه لهذا الجواب . . وتزيده من عندها :

ياوافي للقلب بالود تليت   سرقت قلبي يوم محمد فطنلى
ان غبت بأعلى الصوت بسماك ناديت   ناديت والحقت الندا عبر تللى

[فيجيبها وافي :

وأنا اليا ناديت للصوت فزيت وأركض لمنهو بالهوى مصخرن لي
أركض وعبراتي دموع وتناهيت ورجلي لميقاف الوعد لـه تـــدلي

[وفي هذه اللحظة كانت الشمس قد سقطت وراء الأفق فاكتست الأرض والسماء بالظلال والإحمرار فوقفت شيمه تودع وافي . .

إلى لقاء آخر في يوم قادم . .



[وتسوق شيمه إبلها التي أمتلأت بطونها من العشب . . وحينما أقتربت من منازل أهلها واجهها أخوها الصغير فراج . . الذي أخبرها بأن أهلها قلقين عليها لأنها تأخرت في العودة . . ولم تكن كعادتها . . فلم ترد عليه (شيمه) لأن حالتها لم تكن تسمح لها بذلك وأخذ الولد يساعدها على سوق الإبل لمناخها وتعقيلها . وحينما أقتربت من البيت وهمت بالدخول فاجأها والدها بسؤاله عن الذي أخرها . فقالت له ان المكان الذي ذهبت إليه بعيد ، (واستمرت تخاطب والدها) :

« وإذا كنتم تخافون علي فلست في موقف الريبة . .

فأنا أعرف كيف أدافع عن نفسي . . وليس مثل الإنسانة العفيفة من تعرف كيف تحافظ على نفسها »

[فصمت أبوها ولم يرد عليها ، فدخلت إلى البيت وكان التعب قد أخذها فألقت بنفسها على البساط . فأتت أمها وجلست بجانب رأسها تمسح جبينها وشعرها . وكانت تتمتم بدعوات غير مفهومة . . ثم طلبت من شيمه أن تنهض وتغسل وجهها وتستعيذ بالله وتساعدها على طبخ خروف كان أبوها قد ذبحه لضيوف طارئين حلوا عليهم .

فأجابت أمها ونهضت وغسلت وجهها وأوقدت النار وأتت بالمواعين والقدور ووقفت بجانب أمها إلى أن جهز العشاء ، وقدموه لضيوفهم ووجوههم تنضح بالسعادة والقناعة .

وفي الصباح الباكر فتحت شيمه عينيها على صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة . . فتمطت في فراشها بكسل . .

ولكنها حين تذكرت وافي قفزت وكأنها غزال شارد ولم يمر من الوقت كثيراً حتى كانت جاهزة أمام قرص الشمس المشرق . .

تدعوه . . وهو يدعوها إلى مغامرة نبيلة . .

وإلى لقاء تحوطه النزاهة من كل جانب . .

« إذاً إلى حيث تنتهي الأحلام وتصبح حقائق ومتى تنتهي الأحلام ياشيمه . .

وهذه الصحراء خزان لا ينضب . »

[ويفر سرب من القطا أمام البعارين . .

فترد شيمه لو أن قلبها طائر في هذا السرب تهاجر أينما رحل الحبيب..

أبن مني كلمة أعيش على سماعها أيام عمري ؟ . .

أوصيك ياسرب القطا خذ رسالتي — إلى غالي بالود عيني تخايله

بحسناك خذ ونات قلبي وودها — وقله همومي بين الأضلاع جايله

إلى وافي العراف بلغ تحيتي — وقل له نظيري ممطرات مخايله

من الوجد دمع العين حرق لوجنتي — والوجد دمع العين واضح دلايله

بالله ياسرب القطا لاتخوني — أبيك إلى جيته برفق تسايله

وتقول له شيمه برى الوجد حالها ولها دمعة من جور فرقاك سايله
هو اللي خطف مكنون عقلي وشاقني ولحد سواه من المخاليق نايلـــه
أهنيك ياسرب القطا تقطع الفضا بحسناك بلغ نور عيني رسايلــه

[وتتشتت الإبل في الروضة . . وعيون شيمه لم تعد عيونها . .

ومثلما فاجأته في اليوم السابق – فاجأها . . ولكن بصوته :

مني إلى مضنون عيني ســلاما اللي بعشب القفر يرتع بنوقــه
سلام ياراتع بعشب الخزامــا من فيض مزن مرهشات بروقــه

[فترد عليه وكأنها محلقة بجنحان :

أهلا عدد ماهل وبل الغـماما من لب قلب منك زادت فتوقه
ياما لفقدك نحت نـوح الحـماما وياما ذرفت الدمع واصخر حقوقه

[ويتردد قليلا ثم يقول :

ان ماحصل لي منك يازين لامـا فالقلب مني مخطرات عـروقــه
على النقا يازين مابى حرامــا متى بكاس الحب ماكم نـذوقــه

[فتجيبــه :

إصبر ويلقى الصبر عند الكراما والبعد يرجى خالق ما يبـوقــه
هنيت ياوافي عيــون تنامــا وعيني تحارب نومها ماتـذوقــه

[فبدت شيمه وكأنها تريد أن تغير مجرى الكلام – فقالت :

ياوافي العراف حبك صطــاني وخليت قلبي يابن الأجواد مرعاب
وأنت الذي مكنت خافي صواني وفتحت لك بالقلب باب وري باب

[فثائر وافي من كلامها وأجابها :

ياروح روحي ياهناي وعذابي   ياغاية عندي لها وزن وحساب
وحياة من نشى نصوب السحابي   ان لك بقلبي منزل بين الألباب

[فزادته شيمه :

بكيت من حبك وكل درابـــي   ولاعاد أحاذر لوهرج كل عتاب
حبي نظيف ولا يدنس ثيابـــي   وانت العفيف وغايتي بين الأصحاب

[فتهدجت كلمات وافي :

بالله باشيمه توحي جـــوابي   وحياة خلاق النوى رب الأرباب
إني ما أخونك بالمشيب وشبابي   الا يصول سهيل للجدى حراب

[وأدار وافي ظهره من شدة التأثر . . كان موغلا في إحساسه . .
وكان إحساسه صادقاً .

« باإلهي . . إذا كنت قد زرعت في قلبي الحب . فساعدني على تحمل تبعاته . .

إنني أعيش في عالم يأكل بعضه بعضاً مثل الأسماك في أعماق البحار إنني لا أريد أن أنتهي قبل أن أجرب لذة الحياة ، فالحياة جميلة ، ورائعة لمن يفهمها ، ويعطيها فوق ما تعطيه ، صدقاً ، ووفاء ، وتقديراً .

إنني أحاول أن أكرس قيماً أخذت أفتقدها بن الناس . . في زمان أجبر الناس على خوض الإنحطاط بجميع أشكاله الخلقية المزركشة بثياب النفاق المخادع . »

[ويلتفت إليهـا :

ياشيمه في نجـد وافي تبعهـا   يمشي لها بالود عجل ومطـواع
امنين ماراحت مشى القلب معها   قلب على زين الحجاجين مهراع

[فترد عليه شيمه :

اقلوبنا رب الـبريـه جمعهـا   وأنا عليك القلب شفق ومخراع
حبك معاليق الضماير شلعهـا   ويهب لي من داعي الحب ذ عذاع

[ويود وافي لو قبل عينيها - فيقول :

روحي بروحك جور حبك زرعها   واسهوم نجلك بالمعاليق شراع
ماحد سواك الروح مني طمعها   وأنا بغال الروح لرضاك بيـاع

[فتزداد شيمه في (تغليها) وسحرها : وترد عليه :

احبال روحي سيف حبك قطعها   وطيفك الي ظلل على القلب ينلاع
طيفك يزيل من الظماير وجعهـا   وكنه يصور لي زهر كل مربـاع

[ويمضي النهار بطوله . . وهما لا يشعران به حتى إذا دنت ساعة الفراق . . ودعت شيمه رفيق حياتها . . وتوجهت إلى الأهل والعشيرة

[وحينما دخلت بين المنازل تسوق نوقها . لمحنها بعض الفتيات من صويحباتها وناديها للجلوس معهن غير أنها أعتذرت وواصلت المسير ، فخاطبت احدى الفتيات زميلاتها قائلة :

سمعت علـم يابنات وراعـني   يقولون شيمه قلبها الحب شاعبه

[فأكدت لها الثانية ذلك :

يقولون وافي بالموده صبالهـا وهي بميدان الموده تلاعبـه

[وقالت ثالثة :

تمكن مكين الحب بينه وبينهـا ودادها في قلب وافي يلاعبـه

[فصححت لهن الرابعة وقالت :

الغدر وأخوانه يحولون بينهـم وأرواحهم تبقى من الغبن تاعبه

[ومرت ثلاثة أيام بلياليها وشيمه تضرب في الفيافي على أمل اللقـاء بوافي إلى أن قادها شعورها الخفي إلى تلك التلة التي بنى وافي عليها (رجمه) وأقتربت من المكان وعيونها تلمس حجارة الأرض وأعشابها . . وكأنها تتمنى لو أنها أندمجت في هذه الأرض التي سار عليها وافي وأحبها حبـه لكل المبادىء والقيم الخالدة .

ووقفت بجانب (الرجم) وكأنها تقف بجانب حبيبها . وأطلت على الأفق ثم أرتفعت برأسها مع السماء . . وأطبقت أجفانها وخاطبت الرجم :

يارجم وين اللي بناك وشـيـدك	**يارجم ياليتك عـلي تجيـب**
يارجم ياليتـك بظلك تظلـني	**الى اوجست من عقب الفراقهيب**
حبيب بناك العام يارجم وانتحـا	**ما أنساه لو إن الغراب يشيب**
يارجم ماشفت الوفا كاسب الثنا	**حليف الندا سفر الحجاج نجيب**
يارجم من فرقاه هاجت مدامعي	**ولا لي سواه من العبـاد طبيب**
يارجم أنا وياك في مهمه الفـلا	**والكل منا بالفياح غـريـب**
يارجم أنا أحبك على شان صاحبي	**بعيد وهو وسط الفواد قـريـب**
فقدته وزاد الهم في وسط ظامري	**أرى اليوم بدر ي عن سماه يغيب**

رعا الله من عيني تطلع لشوفتــه   سبا البعد روحي والفواد غضيب
تمنيت لو الريح تاخــذ رسايلي   وتـروح مني للحبيب نديــب

[وصمتت قليلا وكأنها شعرت ببعض الراحة ، إلا أن هواجسها لازالت تلعب في خاطرها ، وأنتابتها الظنون . . وأخذت تفكر في وسيلة تجعلها تطمئن وتعرف أين يكون وافي ، وماذا جرى لـه ؟؟ ولماذا يصد عنها كل هذا الصد ؟ .

وفي رابع يوم وبينما هي متجهة إلى حيث يقطن وافي . . إذا هي : تلمحه على البعد يقطع الفيافي على فرسه الحمراء . . فأخذت تلوح لـه بردائها وحينما لمحها أنطلق يهذب بفرسه صوبها . وسلم عليها ونزل من على فرسه فبادرته معاتبة :

ياصاحبي عني تنحيت وأبطيت   وأنا من الفرقى تهل عــبراتي
ياالوافي الكامل على وصلك أشفيت   والقلب حن وقلت ياعين هاتـي

[ولم يرد وافي أن يقول لها أنه كان مريضاً خلال هذه المدة خوفاً عليها من الانزعاج فرد عليها قائلا :

كانك على اللاماشفقت وتمنيت   أنا لشف أرضاك ترخص حياتي
زولك يصورلي الى اصبحت وأمسيت   ويجيبك الهاجوس لي في صلاتي

[فقالت له شيمه وكأنها تتعلق في رقبته :

من يوم شفتك فز قلبي وهليت   ونور فوادي بالزهر والنباتي
دنياي تضحك بالسعد كل ماجيت   وتظلم علي بغيبتك يا غنــاتي



[فجاوبها وافي قائلا :

حلفت لك بالمعتلي ما سفهليت   ولا نسيت عيونك الساحراتي
وان شفت صيد الريم معهن تعنيت   معهن مهاة مثل صورة مهاتي

[وجلسا قليلا ثم أعتذر لها وافي بأنه سيذهب لأن والده كان قد أرسله للبحث عن جمل لهم كانوا قد فقدوه قبل يومين . . وأنه في حال أن يعثر عليه سوف يعود إليها مرة ثانية . . فقبلت شيمه عذره هذا . . فودعها . .

وأنطلق على ظهر فرسه . . وأخذت تشيعه حتى غاب عن ناظريها ، وحينما قارب العصر على الإنتهاء . . فاذا بشيمه تسمع وقع حوافر جواده قادمة من بعيد . . فعرفت أنه وافي . . فاصلحت من هندامها . . وعدلت شعرها .. ووقفت تنتظر فارس أحلامها .. وحينما وصل وقفت ترحب به:

أهلا عدد ماناح ورق بالأغصان   وحييت ياغال ضحك لي بسنه
أهلا عدد ماغاب نجم ومابان   وترى غلى الغالين مافيه منه

[وجاوبها سريعاً وهو لازال يلهث :

أعطيك ياشيمه على الود برهان   فرقاك نار وقرب لاماك جنه
وحياة رب فارض خمس الأركان   ماانساك كود الخيل تنسى الاعنه

[فرفعت شيمه رأسها نحو السماء :

وأنا الذي ماأنساك لوكان ماكان   مالي سواك بخلق ربي مضنه
شوفك يسليني بروغات الاذهان   وان غبت جر القلب تسعين ونه

[فشبك وافي يديه وقال :

قلبي لقلبك به حديدين وقران   لوغبت روحي عندكم مستكنه
وأرجع ويهداني على الدرب رحمان   والقاك يامن قايد الريم كنه

[ففسخ وافي العنان من على فرسه . . ومسح عرقها وأطلقها وسط الحشائش لترعى ثم أتجه نحو شيمه التي خاطبته وهي تشير إلى ناقتها المفضلة:

مالي من الذكرى سواك وناقتي . وريم غدا وسط الديار غـريـب
ورياض نجد ونبتها عقب سيلها ولقاي لك في سفح كل شعيب

[فهز وافي رأسه وهو مغمض العينين وكأنه يتذكر وقال :

سقى الله لقيانا بروض بـه النفـل سقاه الحيا رحب الفياح عشيـب
عراره وشيحه من روايحك عطرها لوشمها الدرك المريض يطيـب

[فاقتربت شيمه منه قليلا وقالت :

تذكر لقانا بن الارطاه والغضى وأنا وأنت بالرخم النياق عزيـب
نرتع بنجد أفراشنا من ترابهـا وعن من نحاذر بالسراب نغيـب

[فهاجت شجون وافي فزفر قائلا :

رعا الله نجد وراع منهو يروعها هواها لعلات القلوب طبيـب
وانا ضن ياشيمه صواب بضامرى عصى الكود بـه ماله سواك طبيب

[وتذكرت شيمه كيف أن أباها قد غضب عليها قبل الأيام الماضية لأنها تأخرت في العودة . . فخشيت أن يحصل ما حصل في السابق . . فاستأذنت وافي وأنصرفت وهي محملة بشتى صنوف المشاعر المتناقضة .



[وفي مضارب عشيرة شيمه كان هناك منزل ساهر . . تكتنفه زوابع من الشك والحقد . . وهذا المنزل هو منزل (مغضب) عم شيمه .

وكان أبناؤه الثلاثة (الغادر ، ومزعل ، ومجرم) . . مجتمعين يناقشون أمراً هو في عرفهم جليلا ويجب أن يتخذوا منه موقفاً صارماً .

فقال لهم الغادر وهو أكبرهم :

أنا أوحيت ياخواني كلام مع الملا
به الناس من بين البيوت تشيع
يقولون شيمه هي ووافي تعاشقوا
ويشوفونهم وسط الفلاة جميع
سلب بالهوى والود مكنون عقلها
وعار مثل هذا يصير شنيع

[ويزمجر أخواه غضباً وتحدياً لهذا الخبر الذي وقع عليهما وقوع الصاعقة ويطالبان بالاقتصاص من وافي . . غير أن (الغادر) يهدي من روعهما قليلا . . ويشير عليهما بأن يذهبوا جميعاً إلى عمهم (فاضل) ويسألونه عن حقيقة الخبر ، فالأب كذلك يقع عليه جزء من المسئولية حيال بنته ولا بد أن يتحملها فيوافقان على ذلك . .

ويتوجهون الثلاثة إلى منزل عمهم (فاضل) ، وحينما وصلوه وجدوا المجلس مكتض بالضيوف والمعارف ، وبعد أن سلموا وجلسوا قليلا طلبوا من عمهم أن يتحدثون معه على إنفراد فوافق عمهم على ذلك وخرج هو وإياهم قليلا وسألهم عن مقصدهم فخاطبه الغادر بشدة :

ياعمنا جتنا علوم تسيئنا
يقولون عن شيمه لوافي مصاحبه
ان كان هرج الناس ياعم صادق
لازم تعاتبها وحنا نعاتبه
وان ماأنتهى حنا قتلناه بالفلا
وباسلاحنا ياعم حنا نخاطبه

[ويفاجأ عمهم (فاضل) بالخبر الصاعق ، غير أنه يتمالك نفسه ويرد عليهم بنفس الشدة :

حاشا ماسمعت بقصة تذكرونها
ولاظن شيمه دنسة العرض خايبه
أنا أظنها أطهر من حمام بمكة
ولاظن دنس العرض جود ذوايبه
تمهلوا حتى نحقق ونفتهم
والأمر لله والمقادير غالبه

[فيرمق الغادر عمه بنظرة صارمة تحمل معاني كثيرة ثم يشير إلى أخويه إشارة سريعة فينقلبون عائدين إلى منازلهم . .

ويقف (فاضل) وحده مبهوتاً ، ثم يجر خطواته إلى منزله . . وبدلا من أن يتجه إلى المجلس . . أتجه إلى الداخل ويجد شيمه جالسة تصفف

شعرها وتحدو . . فلمحت والدها وهو داخل فعرفت من قسمات وجهه أن وراءه أمراً . . فصمتت ثم نهضت . . ووقفت ووالدها يتأملها قليلا ثم يخاطبها :

يابنت قالوا لي بني عمك اليوم
هرج تشيب العين من جور كوده
قالوا لنا قلبك من الود مثلوم
مع وافي العراف صرتي طروده
تحذري يابنت عفه عن اللوم
وتخيري للبيض عن سود سوده

[فيسقط في يد شيمه . . غير أنها تلتزم الصمت . . فتخنقها العبرات فتنتحب في صوت مخنوق ، فيتركها والدها ، ويود لو ترك العالم بكامله . .

« حتى أنت يا شيمه تقتليني ببطء في آخر أيام حياتي . »



[ومر يوم لم تسرح فيه شيمه . . وأعقبه آخر ليلتقي العاشقان من جديد فيقول وافي :

أنا البارحه ماجلج الجفن بالكرى أراعي نجوم للمغيب تميل
أفكر بوقت قيدتني حبايله عصى لي زماني والزمان طويل

[فردت عليه شيمه :

تقاسمت أنا وياك هجره وصولته والكل منا من عناه غليل
أنا وأنت خلان ولا ديس عرضنا وعلينا إله العالمين وكيل

[فجاوبها وافي :

زرعنا الوفا والفضل ياجاهل به وترى الشيمه العليا عليه دليل
سقيناه من فيض الوداد وزهرت نواميه وأضحى بالزهور يميل

[فصححت شيمه – قائلة :

ولكن وطاه الحيف وضحت خمايله منها خشوف الرائعات جفيل
تقافا عليه الظلم وأسفى جنابه وأصبح بعد هاك الزهور محيل

[ورغم ذلك . . رغم ماقالته شيمه من هذا الواقع الصعب . . إلا أنها كعادتها أو بجوهرها الأصيل لاتقف عند حد . . ولا تستسلم للصعوبات فما كل بعد جفاف إلا خصوبة . .

وان الأشياء والأعمال لاتؤخذ ببداياتها أو نهاياتها وإنما بامتدادها وتأثيرهـا . . فرجعت مرة ثانية تقول :

ان جيت يالعراف تخضر ديارنا وان غبت عيني عقب فرقاك دامعه
خيالك يداعبني بنومي ويقظتي وأذني لصوتك ياعزا الروح سامعه

[فانتعش وافي قليلا — وقال :

ان غبت مادورت يازين غيركم ولاشفت مخلوق به النفس طامعه
سوى الشيمة اللي تل قلبي ودادها تصرم لها قلب الوفا من مجامعه

[فردت عليه :

أنا من هواك القلب لرضاك ينتحي إن ناموا المخلوق يزداد رامعه
الى ذكر فرقاك يكفخ بضامري كفيخ طير صافي الملح قامعه

[فجاوبها وافي وهو يتنهد :

يذكرني البراق يازين خدك الى كشف في حندس الليل لامعه
أحب ظبي الريم من شان عينك واشاهد سحر عينك صبغ في مدامعه

[ويفترقــان . .

وتمر أيام طويلة على فراقهما . .

فكلام الناس أصبح كثيراً . . وأكثر الناس لا يرحمون . .

ووافي يضرب برأسه في المستحيل . .

ويقتل كل النوازع المتطرفة . . التي تراوده بين الحين . . والآخر . .

إنـه يريدهـــا . . والذئـاب لا تريدهـــا لـه . .

ويشد على بندقيتــه . .

ثم يرميها جانبــاً . .

ويرتفع فوق التل ، والسماء من فوقه قبة حالكة مزدانة بالنجوم . .

فيتنهـد في حرقة – ويقـول :

أمس ونوري لاح واليوم ماضاح   أظلم سماي ونور دنياي بــاحي
باح العزا فاح الحشى والسعد راح   من قلبي المجروح تنزف جـراحي
حر بقلبي جاح منه اللهب فـاح   أحرق عروق القلب والدمع سـاحي
حتى حمام الدوح من حرقتي ناح   حام وتحسر وأصطفق ماأستراحى

أصبح مثل ملوح بالحجا شـــاح   لوح لطير حام ونحـا وراحـــى
حسرات حرقات تحن كل الافراح   حلن وحارن بالحشا لـين فـاحى

[ويضرب في التيــه . . خطرات لا تقوده إلى شيء . .

حتى إذا ما أعياه التعب ، تكوم في جوف من الأرض وراح في سبات عميق وأحلام تعلو به وتهبط . . تصور نفسه مع شيمه في عالم يشع بالألوان والضحكات . . وكيف أنه يعلم الناس المحبة . . ويدعوهم لمجاهدة الضغينة في نفوسهم وكيف أن الناس يقبلون عليه وهم يتدافعون ليغسل قلوبهم عن كل ماشابها من أسباب الحقد والمساوىء . . ويهزج الجميع ويضربون الأرض بأقدامهم ويحلقون في أرض ليس بها جاذبية . .

[ثم يستفيق على يد تهز كتفه . .

وصوت يناديــه . .

لـماذا تردونني إلى عالمكم الممتلىء بالنكـــد ؟ . .

[ويرفع رأسه . . من على الأرض فاذا وجهه بوجه صديقه (مرضي) :

وافي : ماذا تريد يا مرضي ؟ .

مرضي : أين أنت لقد بحثنا عنك طويلا ؟ .

وافي : وماذا تريدون ؟ .

مرضي : لا نريد منك شيئاً سوى أن تكون بخير . . إنك لو رأيت حالة أمك . . لما تأخرت عن منزلكم كل هذا التأخير .

[وتسرح عيون وافي في طلعة الفجر التي تلوح على جبهة الأفق وينهض ويسير مع صديقه جنباً إلى جنب .

وفجأة يسأل وافي صديقه عن شيمه إذا كان سمع عن أخبارها شيئاً . .
فيرد عليه مرضي :

مرضي : إن الجميع لا يتحدثون إلا عن موقف أبناء عمها . .
وافي : يالهؤلاء المهابيـــل .
مرضي : عليك أن تحسب ألف حساب .
وافي : من أجل مـاذا ؟
مرضي : من أجل نفسك .
وافي : وشـــيمـه ؟
مرضي : حاول أن تسلوها . . سافر . . أبتعد . . أفعل أي شيء لكي تنجو . . من هذا الواقع الذي تعيشه . .

وافي : . . . .
مرضي : لماذا أنت صامت ياوافي ؟ ولماذا لا ترد ؟ .
وافي : لو رديت عليك لشتمتك . . وأنا لا أريد أن أسيء إليك
مرضي : أنا أبحث عن مصلحتك ياوافي .
وافي : وأنا أعرف ذلك .

ولكن ما أكثر ما يخطىء الصديق في نصح صديقه .. أنت تدعوني إلى نسيانها بالسفر والهجرة . . .
وتنسى أن حبها في قلبي أرتبط بحب هذه الأرض . . التي لو مزقت عروقي وسكبت دمائي قطرة قطرة . . لسمعتها تهتف بأسماء الشعاب . . وكثبان الرمال والسراب ، والخزاما وعيون حبيبتي التي أنبثقت من جوف هذه الأرض الرائعة . . مثلما تتفتح زهرتان من النرجس .. إذا أردت أن تحكم علي بالموت الرخيص فاطلب مني أن أعالج نفسي من داء (شيمه) بالابتعاد عنها .

أنا لا أخاف الموت . . لأنني أرى أنه قدر مكتوب علينا .
ولكن السؤال هو . . كيف نموت ؟ . .

هل نموت كما الأسماك في غياهب البحار ؟ . .

أم كالصقور ، والنسور حينما تمزق بعضها البعض ؟ . .

أم كالجبان الذي يدافع عن نفسه بالبكاء والتوسل ؟ . .

أم كالأشجار وهي ثابتة واقفة ؟ . .

أم كالقذيفة التي تنتهي بعد أن تتفجر في الآخرين ؟ . .

أم كالأمل الذي لو مات من تكالب الأشرار عليه . .

فسوف يكون محفوراً في صدور الأجيال جيلا بعد جيـــل . .
نتناقله على انه الحق والقضيـة . .

ما أكثر الناس الذين يتلاشون من هذه الدنيا كالهباء . .

وما أقل الذين يجعلون من موتهم حياة للآخرين . .

[ويصمت الاثنان . . وكل واحد في داخله يتحدث ويصلان إلى مضارب القبيلة . . فيفترقان ويذهب وافي إلى منزلهم . . فتستقبله أمه بالبكاء والأحضان . . وهو يقبل يدها ورأسها . . ثم تعطيه قدحاً من الحليب فيشربه . . ويسأل عن والده فتخبره بأنه ذهب . . وســـوف يعود بعد قليل .

وأخذ يمازح أمه لكي ينسيها العناء الذي كابدته في أثناء غيابه . . وبينما هما على هذا الحال دخل والده فسلم عليه (وافي) . . وجلسوا يتبادلون أطراف الحديث قليلا ثم خاطب والده :

يابوي رح وإنحر الفاضل وخـاطبـه
وإخطب لي اللي صاب قلبي ودادها
أحبها يابـوي ما أحـب غـيرهـا
والقلب من بـد المخاليـق رادهـا

[ويتحرك والده في مكانه ضجراً من هذا الذي سمعه ويقول :

إبعد عن الأجناب كان أنـت وافي
أخاف عقب البيض تدرك سـوادهـا
إخـتر من الأدنـين حـي تـوده
وهـذي بنـات العـم حمـر فرادهـا

[ويجيبه وهو أكثر تصميماً :

عاهدتهـا باسـما عظـيم نسايلـه
ما أخونهـا لو كان تبعد بلادهـا
سبحان من كمل معـاني وصـوفهـا
وبالزين عن كل المخاليق زادهـا

[وإلى هذا الحد . . كان لزاماً على الوالد أن يرضخ خصوصاً وأن الأم كانت إلى جانب إبنها . .

وفي اليوم التالي يذهب العراف ومعه جمع من كبار قبيلته . . إلى منازل (فاضل) يريد أن يخطبها . . فاستقبلهم (فاضل) . . بالتهليل . . والترحاب . . وتدور القهوة . . وتذبح الكباش ويتباسط الجميع في كل الأمور التي تهمهم . . ويتنحنح (العراف) ويتجه بنظره نحو (فاضل) ويقـول :

أنا جيت يافاضل مسود وقاصد   أبى بنتك لوافي وهو من رجالها
وأنا أرجوك يافاضل تتمم لطلبتي   نبى شيمه عليا رفيع منالها
نبى نقاربكم على واضح النقى   ودنياك ماالحقوا هل العلم جاهلها

[ويتحرج فاضل من موقفه . . خصوصاً وأن عيون القوم منصبة عليه . الكل شغفوا بما يريد أن ينطق به :

أنا أجيب مطلبكم على شرط واحد
أشاور بني عم لها ثم أسالها
بني عمها صلفين صعب مراسهم
بني عمها أخشى تعقد حبالها
أخاف يالعراف من كيد مكرهم
وكل على سلم الجهل قال أناها

[وحينما وصلوا إلى هذا الحد من الحديث . .

نهض العراف مودعاً ونهض جماعته معه . فانصرف القوم إلى حيث منازلهم . .

وفي الطريق قابلهم (وافي) وسأل والده في لهفة . .

فخفف عليه الوالد . . لأن الموضوع لايزال معلقاً . .

فأوجس وافي خيفة من الأمر . .

فتركهم وأنطلق وحيداً على أمل لقاء خاطف مع (شيمه) . . فشاهد على البعد عشرات من الجمال ترعى . . فلما أقترب منها وجد مجموعة من الراعيات فسألهن عن (شيمه) . . فأخبرنه أنها في منطقة اللوا بقرب ناظره . .

فتوجه إلى هناك . . وبالفعل وجدها تلاعب (حواراً) صغيراً عمره (أيام) . . وحينما شاهدت (زوله) حثت خطاها للقائه . . وسلما على بعضهما البعض . .

فقاضت دموع (وافي) على وجنتيه من شدة التأثر . .
فقال لها وكأنه يعتذر :

من الفيض ياشيمه تجارت مدامعي
على الخد دفاق النظير يسيل
أجر ونات تهضم لها الحشى
كثير الغباين والفواد غليل

[فجاوبته وهي تعني ما تقول :

إلي حسبك حاسوس ضيمك يضيمني
ولا لي بها الدنيا سواك خليل
وأنا أبكي على فرقاك وأضحك لشوفتك
وبالحب من لام القلوب هبيل

[فاثار لها هواجس في نفسه تتزاحم . ثم قال :

أنا أخاف ياشيمه تنحا ضعونكم
تبعد ولا نلقى عليك دليل
أنا أخاف من فرقا بها الكود والعنا
وعسى البين مايلقى علي سبيل

[فشدت شيمه قامتها . . فبدت وكأنها تمثال رائع من أساطير الأغريق..
ثم قالت :

ان جذ حبل الوصل بيني وبينك
تحملت من كود العذاب ثقيل
الأيام ماخلن من لا أزعلنه
والأعمار تقضى والزمان طويل

فبدت لها على البعد (ناظرة) . . وكأنها جفن أحمر طالت عليه الليالي من كثرة السهاد والصبر . . فتمتمت شيمه قائلة :

أنا عفت من دنياي ياوافي الملا
ولا لي بها غيرك يعد صديق
ولا همني فيها من الناس غيرك
وقلبي بها ماله سواك رفيق

فنظر إليها ملياً ـ ثم قال :

وأنا منك قلبي يامهاني وغايتي
من القهر من بين الجنوب حريق
دع الياس ياسيد العذارى ومجدهن
دع الياس لايلقى عليك طريق

[فأدارت له ظهرها لكي لايرى دمعة سقطت على خديها ـ وقالت :

طوى الياس روحي وأنت همي وغايتي
وأنا أخاف من موت عليك بويق
أخشى يحول البين بيني وبينك
وأعوم في بحر الهموم غريق

[فجاوبها :

ان جذ حبل الوصل بيني وبينك
تقطع رجا قلب عليك شفيق
أنا حالف ماحاكى الحي بعدكم
وأنا عاهدك عهد رشاه وثيق

[فأخذ (وافي) يساعد (شيمه) على تجمع إبلها . . ثم ودعها وأنصرف إلى حيث لا أرض ولا سماء .



[أستدعى (فاضل) أبناء أخوه . . لكي يسألهم ويتشاور معهم في أمر (شيمه) . .

وكان همه الأول إقناعهم بالعدول عن (تحجيرها) . . وكان الثلاثة متمنطقين بأسلحتهم . . وترتسم على وجوههم ملامح الشر والتجهم . . فتوجه لهم فاضل متسائلا :

ياعيال جا العراف يخطب لشيمه
لبنه وأبى منطوقكم وش تقولون

الغادر :

ياعمنا هذى علينا ظليمة
واني وأبوه لبنت عمي يخطبون

مجـــرم :

حلفت لفعل ضـد وأي جـــريمـــة
ويمـوت من يمنـــاي بالحـد مطعـون

مـزعـــل :

أنـا بســاعـات المــلاقا خصيمـــه
ومن ذل عن لقيـاه خـايـب وملعـون

[قذفوا بوجه عمهم هذه الكلمات . . ثم هبو واقفين وأنصرفوا .

[وفي اليوم الثاني وصل العراف لكي يأخذ جواباً نهائياً . . فاستقبله (فاضل) . . وعلامات الإنكسار بادية على محياه – وقال له :

مجرم ومزعل حجروا بنت عمهم
والغادر الغادر يقول محال
أبيك بالعراف تفهم سلومنا
وتقبل لعذري لا يصير خمال
أخاف من أمر على الله كوده
وأخاف من حال بداها حال

[وكان هذا الشيء الذي يتوقعه ويخاف منه (العراف) . . ولكن ليس باليد حيلة . . طالما أن الأمر وصل إلى هذا الحد . . وعليه أن يقنع ولده بقدر ما يستطيع . .

وقفل راجعاً إلى منزله . . ورأى إبنه (وافي) علامات القلق والوجوم . . بادية عليه . .

وران عليهما صمت طويل قطعه (العراف) بأن قال له :

تعذر الفاضل من أسباب غـادر
ويقول أخوانه عليك غضـاب
أيك تجنب درب شيمه وحبهـا
ولازم تحسـب للأمـور حسـاب

[فينشلع قلب واني من مقره . . ولكنه يتمالك نفسه ويقول :

ياوالدي حلفت ما أتـرك ودادهـا
لو الشمس من يم الشـروق تغـاب
من المستحيل أترك هواها ودربهـا
وهي لقلـبي عن عنـاه حجـاب

[وخرج من الدار وأمه تولول من خلفه . .

ثم يضيع صوت أمه وسط هدير أمواج تتلاطم في وجدانه . .

تسلبه من العقل ، ثم تجعل من العقل سيفاً قاتلا يمتد نحو جميع الرقاب الخانعة على الذل . . والمتطاولة بالظلم والكراهية . .

« لن يمر عليكم الوقت بسلام . . يا أولاد مغضب . . هل تعتقدون بأني جدار منخفض تقفزوني وقتما شئتم . .

أنا لكم كالعقاب الصارم إذا ما أردتموهـا تحدي . »

[ويجر أقدامه بين المنازل والكل يرمقه بنظرات من الإشفاق والتعجب والتساؤل عما سوف يكون . .

ويخرج من الحي . كالتائه في أرض مقفرة من الزاد والماء ، والناس .. والمحبة . .

« هؤلاء الأوغاد يدنسون قبيلتهم بأفعالهم هذه . .
وأنا الذي سوف أغسلهم أو أغسل الأرض منهم . »

[وكانت شيمه في منزل والدها تولول بالصوت باكية . .

فقد عرفت من أمها أن (وافي) خطبها . . وأن والدها رفض خطبته رضوخاً تحت إصرار ورفض أبناء عمها – فقالت :

قلت آه وا ويـلاه يمـاه عفـه
من حسرة قلبي حرق من خطـرهـا
أوجسـت أنا يمـاه بالقلب خفـه
وشوفي عيـوني جـاريات عبرهـا
وافي بكـف الـود قلـبي يلـفـه
وروحي لروحه بأمر ربي سخرهـا
ياليت أبـوي الظـلم عـني يكفـه
والظـلم لو يدخـل ديار دمـرهـا

[وبينما هي تبكي وأمها تواسيها دخل عليها والدها وسألها :

أولاد عـمـك جـو يخطبـون مـني
للغـادر الغـادر يبونك حليلـه

[فترد عليه غاضبة :

هلى عل مكنون قلبي تجني
للغادر الغدار ماني حليله

[فيصر عليها والدها :

لازم يجي ظنك عل قد ظني
وإن تقبلين الغدر وأنتي ذليله

[وتصده شيمه :

ياوالدي بالغدر لا تمتحني
قلبي لوافي مايضيع دليله

وبعد هذا الجواب الحاسم .. لم يملك الوالد غير السكوت عن الموضوع نهائياً ..

ويرحل أهل شيمه مع قطينهم من ذلك المكان ..

ويفترق الحبيبان .. وتمر الشهور الطويله .. والمسافة تزداد .. والبعاد يزداد .. وكل ما تحمل اللوعة من معاني يزداد .. ويزداد ..

[وفي يوم من الأيام كان وافي مع صديقه مرضي واقفين على أحد الآبار برويان (حلالهما) . . وكانت هناك مجموعة من الفتيات أخـذ مرضي يتغزل بهن . . ووافي منشغل عنهم بل وبعيد عنهم . . حتى وإن كان جسده معهم . . ويلكزه مرضي بكوعه :

علامك ياصاحبي ساكت . .

ألا تنظر . . أليس لك عيون . .

تشاهد الجمال . .

[فيرد عليه وافي :

الزين يامرضي نحى عن ديارنـا
وفي ما مضى فاضل لهلنا جار
شدوا وخلوا عبرتي تضهد الحشا
ونثرت مي المدمعين جهار
بعد ما جرى دمعي تصورت شيمتي
وتبدل نزيف الناظرين حمار

الأيـام لو تضحـكـك تقربك للبكـاء

والأيـام طـوال والعـمار قـصـار

[فيحترم مرضي مشاعر صديقه . . ويتركه وحده . . وينصرف هو لمساعدة البنات . . ولسان حاله يقول :

« هذا هو المهم فقط . . على الرجل أن يكون مثل الفراشة ينتقل من زهرة إلى زهرة أخرى . . وليس مثل (وافي) . . هذا المجنون الـذي يكبل نفسه بالقيـود . .

ويبكي على حاله . .

ما أروع الإنسان المتحرر من كل قيـد . . الذي يعيش ليومـه فقط . . وينسى أمسه ولا يفكر في غده . .

وماذا يجني الإنسان من الدنيا غير ساعات ممتعـة يعطي فيهـا نفسـه كل ما تريـد . .

أو كل ما يستطيع هـو . .

وبعد ذلك فلتذهب الأشياء إلى الجحيم . .

حقاً إنني بدأت أتغـيـر . .

أصبحت إهتماماتي وأفعالي لا تروق لوالدي . . وأقاربي المسنين . . مع أنهم في السابق كانوا يضربون بي المثل في الطاعة والإعتدال .

ولكنني على أية حال أفضل من هذا (الوافي) الذي أضاع الاثنين .

فلا هو الذي كسب رضي أهله . . ولا هو الذي متع نفسه . »

[ويغرف من الدلو في راحته ويرشق صديقه المنطوي على نفسه . .



فيلتفت (وافي) ويتبسم بمرارة . . ثم ينهض ويتجه صوب صديقه الذي يبادره قائلا :

مرضي : أنظر حواليك أيها المحروم . .

وافي : مبروك عليك . . إن هذا من نصيبك أنت . . أما أنا . .

(قالها ثم تنهد ، وصمت) . .

مرضي : وماذا أنت . . لقد دفقت صبوحك بيمينك . . كل البنات يتمنينك . . ولكنك مصر على هذه الشيمة

فالتفت اليه (وافي) بسرعة وعيناه تقدحان .

وافي : وما تقول في شيمه ؟

مرضي : لا . . لا أقول فيها إلا كل شيء طيب . . فلاشك أنها جميلة.. وعاقلة.. ولكنها ليست كل شيء في هذا الوجود.. وإذا كنت أنت خيالياً فليس كل الناس مثلك .

وافي : ولماذا أنت تصر على أن تلبسني ثوب الخيال ؟ . . فهل كل من كان وفياً أعتبر خيالياً ؟ . . وكل من صدق خيالياً ؟ . . وكل من أحب خيالياً . . وكل من نشد الفضيلة خيالياً ؟ . .
وكل من حارب الفساد والظلم والتعسف والتسلط . خيالياً ؟ . .
هل أنا خيالي ؟ . .
أم هو العالم المنحرف ؟ . .
إلى أين أنتم ذاهبون ؟ . .

والله ، والله لن أستكين . ولن أهجع . . مادامت خفافيش الليل والظلام . . تتربص في كل مكان في الزوايا المهجورة والمتعفنة لن أستسلم . ولن أنحني أمام كل أفـاق . وكل معقـد . .

لقد أعطيت من نفسي أقصى حد ممكن . . ودفعت الثمن غالياً ولن أكررها . . طالما في جسمي عرق ينبض . .

انكم تدفنون رؤسكم في كثبان هذا الرمل المتراكم . . وتظنون العالم لا يراكم . . عدلوا من أخلاقكم . . قوموا أنفسكم تصلح حياتكم . . وإلا فلن تجنون غير الهلاك . .

ألم تسمع المثل الذي يقول . .

إن من يـزرع الريـح . . لابـد وأن يجني العـاصفـة . .

فماذا تنتظرون ؟ . .

نعم ماذا تنتظرون ؟ . .

ألم تستفيقوا بعد . . وكأني بكم على هذه الحال لن تستفيقوا

ان هذا الغي الذي تعيشون فيه متولد من داخلكم . . فطهروا ضمائركم إن كنتم صادقين . .

ان تصوراتي كلها مرتبطة بمن أحب . . ومحبوبتي مرتبطة بأرضي . . بترابي . . بأهلي . . بتاريخي . . بمستقبلي .

فكيف لا أعشقها . . وكيف لا أتألم . .

أنت تريد أن تقتلني . . وانا لا زلت حيا . .

ما أصعب مطلبك . . وما أصعب قبولي . . أذهب أبحث عن الشمس . . عن كل الكوكب . . في هذا الكون الشاسع وعندها ستعرف كم أنا على حق . . وذلك حينما يجهرك الضوء وتضنيك المسافات . .

أن من يبحث عن الحب ياصاحبي . . لا ينتظر الثمن . . لأنه دائماً يدفع . . ويدفع . . عن قناعة وسعادة . .

فلا تشفق على حالي . . وإنما تعلم كيف تطيع الحياة في الوقت المناسب . . وكيف تعصي الحياة في الوقت المناسب .

[فيهز مرضي رأسه . . ويمط شفتيه . . ويلتفت خلسة نحو البئر وإذ كل البنات . . قد غادرنها . .

ياإلهي هكذا . . بكل بساطة . . وأنا جالس أستمع لمحاضرة « وافي » . .

وينهض كالمعتوه . . ولكن بعد أن فات الأوان . .

إذاً . . لماذا المكوث ؟ . . هيا يا وافي علينا بالرجوع .

وينهض . . وافي . . ويسوقان الإبل متجهين نحو منازلهما .

[وفي نفس الوقت تقريباً . . كان الأشقياء الثلاثة (الغــادر) و (مجــرم) و (مزعــل) يطلبون مقابلة (فاضل) . . لخطبة (شيمه) لأكبرهم . . ويحاول الأب . . أن يقنعهم بأنه لابد من موافقة بنتـه . . وهذه هي الطريقة السليمة في نظره . .

غير أن (الغــادر) لا يعترف بهذا المنطق . . ولا يقبل به فيحتد الجدال . . بينه ، وبين عمه . . فيرتفع صوته . .

يـاعـم زوجــني ولانيـب عـاذرك
وعـلى بنـت عـمي لاتصــير بخيــل

[فيحاول عمه أن يكبح من جماحه . . قليلا . . فيرد عليه :

تمهل . وأنا معطيك يالغـدر حبلهـا
وعسـى قلبهـا لك بالـوداد يميــل

[فيثور الغادر في وجه عمه صارخاً :

بالغصب أبـا خذها ولو منت راضـي
ولا لك علينــا بالـزواج جميــل

[وحينما سمع عمه هذا الكلام الوقح . . انتفض واقفاً — وقال :

تبعدوا وابقوا على قضب حجرهـــا
والأيـــام تمضـــي والزمـان طويــل

[وفعلا طردهم . . من بيته شر طردة . . وخرجوا . . وهم يتوعدون ويتهددون . .

وكانت « شيمه » تستمع من وراء الرواق لهذه المخاطبة التي تحولت إلى ملاسنة . .

وكانت في أعماقها فرحة . . غير أنها أصبحت « محجرة » فكيف السبيل إلى الخلاص . .

فتشعر بمأساتها بجلاء . بل أن واقعها بكل ماضيه . . ألم يتجسد لها بكل تضاريسه وتشوهاته . . فتهتز بها الأرض . . وتتدافع في رأسها التصورات . . وكأنها في سباق مع الزمن والأحداث . .

وتنهض من مكانها . . وتخرج من المنزل . . على غير هدى وهي تتمتم بهذه الكلمات واليأس يملأ قلبها :

تركناك يانجـــد وروحي معذبه	**تركناك لو النفس ماهي بطايبـــه**
تركنا الوفا لو هو مرامي وغايتي	**مليح المحيا طاهرات مذاهبـــه**
أنا أخترت عن نجد ثراها ونومتي	**بقبر غميق حالكات غياهبـــه**
أبى ثرى نجد برفق يضمـــني	**الى الحشر يوم الرب كل يحاسبـــه**
تركت الوفا يوم الوفا حال دونه	**شياطين انس دنست العرض خايبه**
سقوني بمر الصبر والغدر سلمهم	**والروح مني من عنا الكود ذايبه**



سقا نجد من نو السما صادق الحيا   من الهرف هطال تقافا سحايبه
وبجبه من وبل الثريا مخايل   صدوق رفوق ملقحات هبايبه
وتقافا به الشتوى وبعطر سماكها   وفي كل صبح ديرة المجد شاربه
ويقفا السماك من الربيع هوامل   والمزن في نيسان بالوبل دايبه
أنا عفت نجد وصاحبي بين حيها   ولاذكر محبوب جفا دار صاحبه
ولكن حبيبي حيل دوني ودونه   وحبل الرجا مني قطع كف جاذبه
وأنا أوجست قلبي بين كفين طاير   بثومة فوادي شارعات مخالبه
أنا عفت نجد وحبها يسكن الحشا   وفيها عزيز الجار قلبي يداعبه
اخترت درب الموت وازعلت صاحبي   رعا الله حي بالشدايد يلاذ به
رعا الله من حبه تمكن بضامري   ولو مت روحي دايم عند جانبه
سقا نجد ماقلت تسعين حجة   زهر عشبها فيها مغط ذوابه
تركت نجد ولي بنجد بضاعة   حريب الردا مارخى على الذل حاجبه
حبيب لبيب صادق الفكر مغرم   بكسب المعالي كان صكت نوايبه
حبيب وفى ماقفا اللوم عرضه   وبالشيمة العليا رفاع مقاضبه
ولا وقفت رجله بساحة قصيرته   ولا وطت رجله بالأدناس عايبه
عريب كما عود الرديني ليا خطا   وعليه تاج المجد بالوجه لاحبه
الا وا عشيري حيل دوني ودونه   من الناس عيال لبيتي مطانبه
من أجلهم عفت الحياة وضيمها   وعن الذل نفسي مقفيات ركايبه
نحوني عن اللاما نحا الله دارهم   وتجرعت مر الموت ماني بهايبه

ياحافرين القبر غرب من اللوا زيدوا تراب القبر وأبنو نصايبه
على شان ممدوح السجايا يمرني وياطا على قبر ثوى فيه غايبه
وحطوا على قبري زهور تظللني عن البرد تدفيني وعن حر لاهبه
وقولو لعفه لاتجرح نظيرها ولو تنثر العبرات ماهيب ثايبه
أنا أقفيت عن دنيا بها الكيد والشقا وخليت غال مت من شان واجبه

[وتمر الأيام تتعاقب وكأنها في سباق . . ويجمع الله الفريقين على حال . . وأول ما يخطر في بال العاشقين . . بالطبع هو اللقاء الذي كاد أن يعز . . بعد أن ذابت الأرواح من شدة الوجد . .

وخوفاً من العيون وتجسسها . . يبعث (وافي) بصديقه (مرضي) لكي يتقصى أخبار (شيمه) وأين هي تتجه في مراعيها . .

وفعلا يذهب (مرضي) . . ويعرف كل شيء عن إتجاهاتها كما يعرف عن خطبة (الغادر) لها . . ورفض والدها وتحجير أبناء عمها وتوعدهم . .

فيرجع إلى صديقه يقص عليه ماسمع . . فيتأثر (وافي) كثيراً . . ويجلس طوال الليل . . سهران . . يقلب الأمور ويوازنها . . ويحاول أن يتخذ قراراً حاسماً . . ولكنه لا يستطيع من كثرة التشويش الذي يزيد في رأســـه . .

وفي الصباح الباكر . . يحمل سلاحه . . ويركب فرسه ويتجه إلى حيث الوصف الذي ذكره له (مرضي) . . وفعلا يرى (شيمه) بين نوقها . . وما أن تلمحه حتى تتهلل أساريرها وتنسى كل العذاب والعناء الذي تحملته طوال هذه الشهور الثقيلة . .

كان منظرها قد تبدل من شدة ماكابدته . . فعصر الألم قلب (وافي)
حينما أخذت (شيمه) تقص عليه ماحصل لها طوال غيابه . . وكيف أنها
تمنت الموت على هذه الحياة التي لاتطاق . . فجاوبها (وافي) :

واحسرتي عيو بني عم شيمه
والروح مني سيف بأسى صرمها
حتى هل المعروف جوني حشيمه
توجهوا لاشك مالله قسمها

[وجاوبته :

ياوافي العراف هذى ظليمه
وأرواحنا بالحب ماحد رحمها
أهل الردى وأهل الخنا والجريمه
لعلهم بالنار تصلا رممها

[فرد عليها :

ناس حقود قلوبهم لي قديمه
ترفع على راس الرذيله صنمها
قلوبهم بالخبث ماهي سليمه
والا عن المعروف ربي عصمها

[فرفعت يديها للسماء – وقالت :

يالله يامن صار موسى كليمه
يامن غضب وديار صالح هدمها

يامنشي من يمة الغـرب غيمـه
تقفى جميع أرجالهم من عـدمهـا

[وعدل وافي من جلسه – وألتفت إليها قائلا :

بني عمك الغادر ، ومجرم ، ومزعل
بـلا وجـه برهـان سقوني منونهـا
أهل الجرايم بالضغاين تغضبـوا
عليهم لباس السود تضفى ردونهـا

[وردت وهي ساهمة :

عن الشيمة العليا عصاة تنكـروا
يبون الردى والا فهى مايبـونهـا
الفضل والمعروف مالقى عنـدهـم
وللجـواد حيلات الردى يفتلونهـا

[فقال وكأنه يعزيهـا :

لنـا الله وال العرش يعـلم بحالنـا
يجيب دعـوة من شكى من غبونهـا
عسى من سعى بفراقنا عقب ولفنـا
عن العزيم الذل تقفى ضعـونهـا

[ولكن هذا الرد لم يقنع « شيمه » التي أمتلأت نفسها بالجراح فقالت :

ياوالي العراف ياكود حسرتي

ياكبرها بالصدر ياعظم كونها

تحطمت منها ظلوعي وأنا الذي

لابد نفسي ما يجيها منونها

[فبتمالك وافي نفسه . وأشار لها :

أرى الناس ياشيمه عن الخير تنتحي

وعلى دروب الشر تمشي وعـايـاه

يجون فرقى من تصافي ودادهم

وقلوبهم عن نية الخير مايله

[فعدلت خصلات من الشعر تطايلت على وجهها – وقالت :

الناس بالعراف ياكود ظلمهم

أهانوا فوادي لين زادت غلايله

وأنا ظن غل صاب قلبي يميتني

على غالي بالود عيني تخايله

[فقال لها وكأنه ينوح :

بلياك حرمت الحياة وعفتها

ولا أريد بالدنيا خليل نسايله

ولو خيروني بالمخاليق كلها

ماشاقني غيرك من البيض زايله

[فجاوبته وكأنها تستجمع مابقى من قواها :

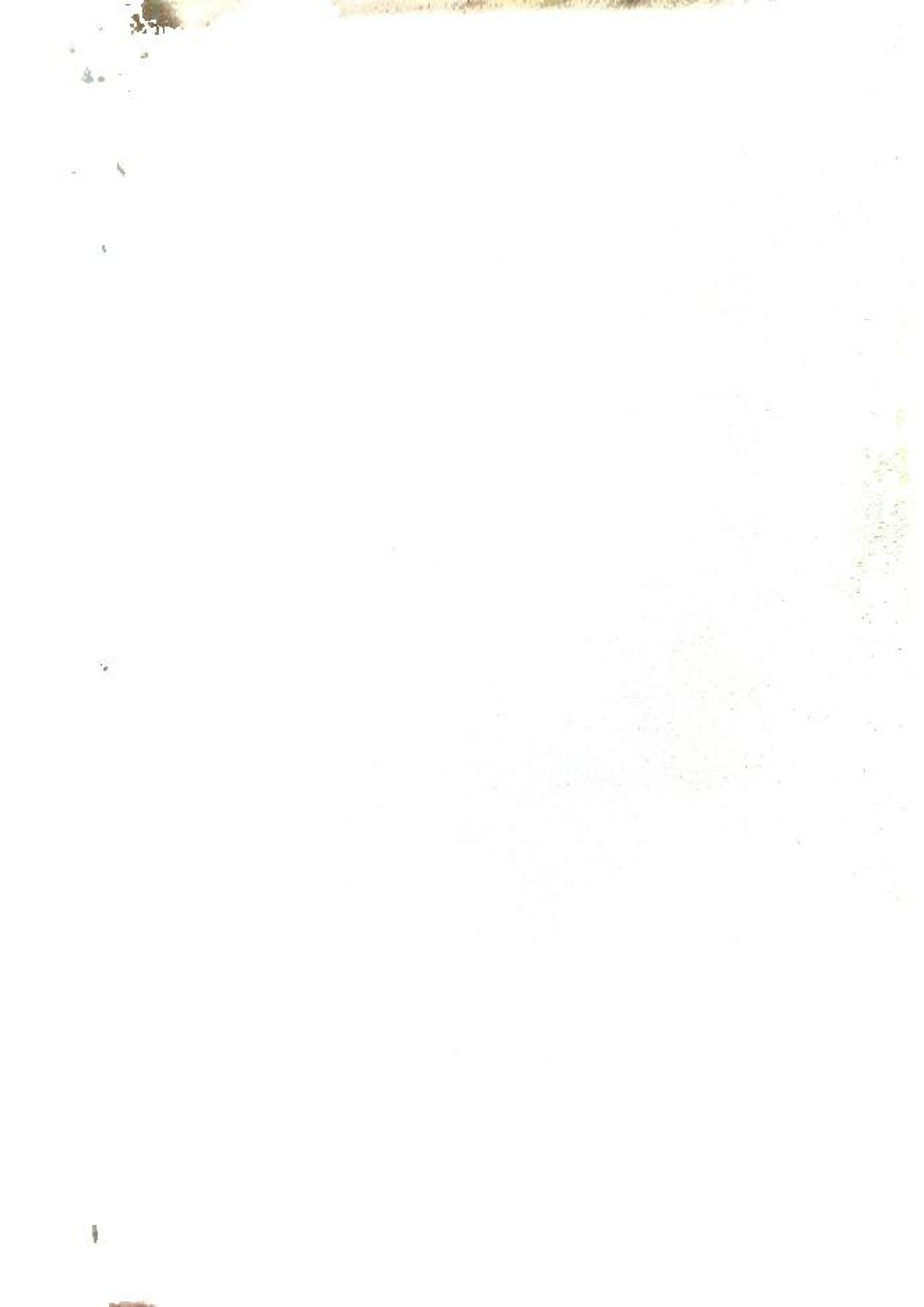
وأنا ماعشقت من الملا كود وافي

مليح المحيا وافيات خصايله

حليف الوفا مادنس اللوم عرضه

وبالجود يوم الشح تندى شمايله

وقبل أن يسقط قرص الشمس بقليل ينهضان ويتواعدان على اللقاء في اليوم القادم .



[وفي نفس المكان يلتقيان . . فتبادره هي قائلة :

شيمه تقول من العنا عقب ماكـاد
أشوف جرحي بين الأضلاع زادي
عليك ياوافي غدى دمعي أبـداد
وأنت الودود اللي صفا له ودادي

[فيلوي « غترته » على حلقه – ويقول :

شحوبك اللي ضيعوا سلم الأجواد
ضلوا ويحداهم على الشين حـادي
دليلهم عن نية الجود قد حـاد
ماهو لهم مع نية الخير قـادي

[فترد عليـه :

ناديت من غبني على روس الأشهاد
ومن الظليمه مافزع لي منـادي

الظلم ياهل الظلم يجرح للأكباد
يالظالمين اللي سلبتوا فوادي

[فينكس رأسه قليلا – ويقول :

باح العزى ياشيمتي والجهد باد
يازهرة مالمستها الأيادي
الى فقدتك صرت صلصال وجماد
وان كان شفتك طاب شربي وزادي

[وتخطو شيمه خطوات مضطربة لاتقودها إلى شيء بقدر ماتدل على قلقها . . وفزعها من واقعها الذي هي فيه . .

فيلحق بها وافي . . ويجلسان على الأرض . . فيخاطبها :

لا ماى لك عنها عصاة نحوني
قالوا ترى حنا لشيمه بني عم
قلت ابعدوا لاعلكم تذهبوني
أنتم خبات الكيد شرابة الدم

[فرفعت رأسها نحوه – وقالت :

ياجذ قلبي جد لدن الغصوني
غصون ورد بالمناشير تصرم
من يوم قلت الظلم ياعظم كوني
ومن جاير العبرات قمت أتهضم

[فتكلم بشدة أكثر :

ان كان هم يازين عنكم نحوني
أكتلت عقب الضيم هم ورى هم
عى العمى يعطى لهاك العيوني
ووجوههم عقب المعزة تخدم

[فقالت شيمه وهي ترتجف من شدة التأثر :

عن الوفا والعرف كان أبعدوني
طلبت أنا الغفران وأفطرت بالسم
مابى سواك ان كان هم خيروني
وحرمت كل الناس كافر ومسلم

[وأخذت السحب تجتمع .. ثم أرعدت السماء .. وهب الهواء بارداً .. ومشبعاً برائحة المطر .. ثم قالت :

أنا أخيل يالعراف هم يهومني
هم بقلبي يابن الجواد ضايمه
تصورت عنوان الفراق ولا حلى
تجلت عناوينه وبانت علايمه

[فجاوبها عشيقها ومفتونها :

تواصوا بنى عمك وللشمل فرقوا
غربان بين بيننا اليوم حايمه
عى دارهم من بعدهم تندب الثرى
بعد ما جرى بأمر الكريم امتلايمه

[وتهل السماء بزخات هادئة من المطر فيخلع (وافي) عباته ويضعها على أكتاف (شيمه) التي تقول :

عسى من سعى بالبعد بيني وبينك
تزيد حسراته وتكبر هضايمه
الأنذال ماتبذر من الخير حبه
وللشر تبني بالرفاعه مخايمه

[فجاوبها وافي :

تجملي ياشيمه شاع ذكرها
ويازهرة ماقط بيعت لسايمه
تجملي بالصبر بلكي وربما
يفرج لنا رب كبار غنايمه

[قال هذه الكلمات وكأنه ليس مقتنعاً بها . . فللمستقبل علامات لا تخدع العين البصيرة . . وأخذ المطر يتزايد . . فلم يعد لجلوسهم سبباً . .

فساق وافي الإبل . . وأركب شيمه على ظهر الفرس . . وسار بجانبها راجلا . . حتى إذا أقتربا من الخيام . . نزلت من على ظهر الفرس . . وودعها وأنطلق إلى حيث الإنتظار والليالي الطويلة .

[ذهب وافي إلى منزل صديقه (مرضي) فوجده يحمس البن على النار.. وقد ألتف حولها مجموعة من أصحابه . . فسلم عليهم (وافي) وجلس عندهم . .

وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث وكله بالطبع يدور حول مغامراتهم.. اما في صيد الغزلان والوحوش . . أو في مغازلة النساء . . وكان مرضي أكثرهم حديثاً وابتهاجاً بهذه المواضيع التي تعطيه مجالا للمجادلة والمبالغة .. وينسى أن في البيت أحداً غيرهم . . فتعلوا ضحكاتهم ويعلو صوته . .

ثم يسكته أصحابه ويطلبون منه أن يخفض من صوته . . فيفعل مثلما أرادوا – ولكن سرعان ما ينسى ويرجع إلى ضجيجه وتهتُكاته . .

وكثيراً ما يقع ضحية لهذه العادة السيئة . . فوالدته العجوز شغوفة (بالتنصت) والإستماع . . وكلما حضر أصحاب إبنها أختارت مكاناً ملائماً بجانب الرواق وأضهرت أذنها وأخذت تلتقط أدق التفاصيل . .

وفي ثاني يوم تفتح محاضرة أمام إبنها . . وتوبخه . . وتشكوه على والده . . وهو يقسم لها بأن ذلك لم يحصل . .

وبينما هو يتكلم أشار له أحد أصدقائه بأن ينظر خلفه فالتفت . . فاذا باذن أمه ترفرف بجانب الرواق . . فالتقط خيزرانة كانت على الأرض ونخش بها أذن والدته وكأنه لا يقصد . . فعلى صوتها بالشتائم والسباب . . فأخذ الجميع يتضاحكون . .

ووافي جالس معهم صامت لايلوي على شيء . . فسأله أحد الحضور عن هذا السكوت العجيب . . فأجابه وافي :

أنا عندكم والقلب ماهوب عندكم
خفق من ضميري يم حي يلاعبه
وأنا ساكت والقلب للود طاير
اليها وشيمه بالمحبه تداعبه

هنيكم ياداهين بنومكم
وأنا ضميري جاير الحب شاعبه
هنيكم ياضاحكين بغيكم
مامنكم اللي صايب الحب راعبه
ضحكت يامرضي وأضحكت لابتك
وأنا القلب يامرضي يبى شوف كاعبه
لوتنشد أمك عن هوى كل عاشق
الى زاد همه وادلهمت مصاعبه

[فرنت على الجميع السكينة . . قطعها وافي بنحنحته وأجابته العجوز من خلف الرواق صائحة . .



الله يـلاك يابن العـراف . . ذكرتني عصر مضى وفنـون .

[فجاوبهُ إبنهـا :

ليتك ما تحكين . . ولا تسمعين . . ما هـذا الكلام الذي تقولينه ؟ .

[فردت عليه غاضبة :

الله يلقفك من ولد . . دايم لسانك طويـل

[فجاوبها . . بلهجته التقليدية :

الله يرضى عليك يا ميمتي . . وأنا ولد من ؟ وليدك يا حبيبتي . .

[فلم تتمالك الأم نفسها . . وخرجت عليه وفي يدها عصى . . فتقافز الجميع هاربين وهم يتضاحكون . .

إلا (وافي) الذي وقف إحتراماً للعجوز . . فسلمت عليه ودعت له.. ودعت على من وقفوا في وجهه . .

فشكرها . وافي . ثم أنصرف عائداً إلى منزلهم . .

وفي الصباح الباكر . . وقبل أن تحين صلاة الفجر . . نهض وافي من فراشه وأوقد النار . . وعمل لنفسه قهوة . . وأخذ معه حبات من التمر وقليلاً من الماء . . واتجه صوب الشمال على أمل اللقاء برفيقة عمره . .

وكانت الريح الباردة تصفح وجهه . . محملة بأريج الشيح والعرار . . فتزيد من صبابته لوعة وغربة .

« ايه ياليل النيام والأغبياء . . كم أعطيتني من جورك موقداً تضطرم فيه لعناتي ، على من منحتهم السلام . وهم لا يستحقون غير الفناء . .

وفرشت لهم الطريق بالورود المزيفة . . وهم الكلاب القـذرة التي هتفت باسمك بالنبـاح . .

ياليل النيـام والأغبياء . . لن يطول الزمان . . فما بقي من الوقت إلا قصـير . .

وعيوني تنطلق نحو (شيمه) . . التي هي النهـار »

[ويلتقيان على أرض كأنها البساط الأخضر - فتقول له شيمه :

بني عمي اللي فرق الله شملهم

يبون قهر القلب عن من يوالفه

حرام علي إني فلا أريد غيرك

وأنا في عظيم الشان بسماه حالفه

[ويعطيها مما بنفسه :

أنا في غرامك تهت يابنت فاضل

ونفسي لغيرك من هل الكون عايفه

وأنا أخاف من كيد الليالي وغدرها

وروحي على روحك من البين خايفه

[فتجيبه شيمه :

يضدوننا بالظلم والظلم سلمهم

هل الظلم روحي من عناهم مهايفه

الله لايسقي ديار مشو بها
هل الكيد خلوا دمعة العين ذارفه

[فيضرب على صدره – ويقول :

سعوا بالفراق وذوقوا قلبي العنا
وأنا الحال مني من عنا الحب هايفه
ماصاب قلبك بالهوى صاب ضامري
ومالاف قلبك قلبي اليوم لايفه

[وينحني على الأرض من شدة ما أصابه . . فتنزعج شيمه . . وتقترب منه . . وتنهض رأسه فيرفع وجهه نحوها . . ويبتسم قائلا :

أنا منك ياشيمه حياتي وميتتي
وشوفك به العمر القصير يزيد
يوم أشوفك فيه يستر خاطري
أشوف صبحه مع مساه جديد

[فترد عليه ، وقد هاجها الوجد :

وأنا فيك يالعراف روحي معلقة
تعلقت روحي بسلك حديد
تعلقت روحي بروحك وشدها
حديد ولا أظن الحديد يبيد

[فجاوبها وكأنه يصحح لها :

يبد الحديد بجسد فعالة الردى
وبسلومهم تبقى الحرار عبيد
ولاشفت عني من نحا ظلم ظالم
ولاشفت من نشكي عليه رشيد

[فقفزت واقفة وكأنها تريد أن تلقي خطاباً :

الى صك باب العدل دوني ودونك
أرى العيش في ظل الحياة زهيد
أرى العيش في دنيا الهوان مذلة
ومن مات في العز الرفيع شهيد

[يخاطبها وافي ويبدي لها هاجسه :

أنا أخاف من الغادر بربعه يظيمني
هل الظلم ماحاشوا كبار الفوايد
ظهر غيهم بالشر وابعاد شملنا
سقونا من السم المصفى نكايد

[وقالت بكلمات متقطعة تكاد لا تسمع :

أنا من سبيهم شفت موت يلوح لي
وأنا أخاف من موت للأرواح صايد
أودعك ياوافي وودع بك الوفا
وودع هوى نجد صدوق الرعايد

[فاهتز وافي من هول ماسمع ، وقال :

أنا أفديك ياشيمه بروحي ومهجتي
ان حسبك من ظيم الأيام كايد
وان كان داع الموت زارك وزاري
تري دمنا عند العصاة الشدايد

[ويرتفع صوت شيمه قليلا :

ياطالبين الثار خوذوا بثارنا
من راس مجرم والخباث الزهايد
سلام لنجد وكل حي ربا بها
وسقاها من الوسمي صدوق الرعايد

[قالت هذه الكلمات ثم سقطت مغمى عليها . . فانحنى عليها يهزها ويناديها . ولكنها لاترد . وأسرع كالمجنون يتخبط . وبلل وجهها بالماء . ففتحت عينيها . وحاولت أن تتكلم . غير أنها مالبثت أن أغمضت عينيها . وأخذت تئن من شدة التألم . . ووافي يضرب كفاً بكف ولا يعرف كيف يتصرف . . وماذا يعمل . . بل كيف يفكر . . (حياته) أمامه ملقاة على الأرض . . وهو الذي يتمنى أن يفديها . . ولا يستطيع . .

« أين أنت أيتها الجيوش التي في العالم . . لاصدك بهذا الصدر المتعب دفاعاً عن حبيبتي . .

أين أنتم أيها الأشرار ؟ . .

يا جحافل الظلم لو كنتم تبرزون لي تحت شمس النهار لعرفت كيف أنصرف.. لجعلت من نفسي لكم هلاكاً . . ولحبيبتي أسواراً محصنة ..

ياشيمتي أفيقي . . أنظري كم أنا مسفوح على ظلالك . . لقـد طالت الأيام . . طالت . . واهتزت معها ببارق . . وتمـزقت في عيوني بـبـارق . .

وتثنى التاريخ في أيامنا كما يتثنى جسم الثعبان . . وأنت الحمامة البيضاء التي حلقت . . أو لا بد وأن تحلقي في سماء الحرية . . نقية كالطهـارة . . عظيمة كعزة الرجال أو كالسيف يهوي ويصعد . . ليفسح للعـدل طريقـاً . »

[وتغيب شيمـه . . تغيب . .

« هـل أنـا في حـلم ؟ . .

يارب السماء . ويارب من لفتهم مغاور الكهوف وما عطفت . وما عرفت وما فكرت بهم جموع العالمين . . التي تهاوت في براثن المادة . . كما يتهاوى الذباب على صناديق القمامـة . »

[وتحرك الريح ثوب شيمه . . فيظن أن جسمها هو الذي يتحرك فيقبل عليها وكأنه يريد أن يحتوي العالم بين جنبيه . . ولكنه يتوقف فجأة يتوقف . . كل مافيه يتوقف . . أو يكاد .

« من هنـا يبدأ الإنسان إمتحانه الصعب . .

ناديت من غبني على روس الأشهاد
ومن الظليمه مافــزع لي منــادي

[تمثل بقولها هذا وانطفأت الشمس في عينه . . انطفأ الحـق في ضميره . . انطفأ الصدق والحنان . . وكل المواقف النبيلة لم يبق لها مكان . . فمكانها مسجى على أرض بخيلة . . تشح حتى على أبنائها الأوفياء . .

ويعاود الكرة . . ينادي على شيمه . . يصبح بأعلى صوته فتجاوبه الوحوش . . ويجاوبه الألم . . والخوف . . والمواجس التي لا أول له ولا آخر . .

ويبكي . . ينتحب كالأطفال . . صغيراً مثلهم . . وضعيفاً مثلهم . . ومحتاجاً إلى المواساة مثلهم . . غير أن حزنه وحيد في غربته .

وتقترب الشمس رويداً رويداً من مقصلتها التي تطوق العالم بافق يبدوا من حدته كالنصل . . وتظهر الشمس في خياله وكأنها ترتجف خوفاً وبأساً مطأطأة الرأس . . مدفوعة إلى الساحة في جو يعبق برائحة الدم . .

وتحرك شيمه ساعدها ببطء . . وتتلفظ بكلمات غامضة . . فيرتجف (وافي) وتغشى عيونه الدموع . .

ويأخذ بيدها الباردة وكأنه يمسك بقطعة من الثلج وتفتح عينيها . . فاذا بكل عذابات البشر تطل منهما في توسل .

« لك الله ياشيمة . . يازهــرة مالمستها الأيادي . »

فتتكلم وكأنها لا تتكلم . .]

أعزيك ياوافي ووصيــك نــاقــتي
ترى لحمهـا يبقى عليـك حـــرام

أودعك صيد الريم خلـوه بالفـلا

وخلـوه في وسـط الزهـور ينـام

[فانتفض من مكانه . . وكأن صاعقة انتشلته من الأرض . . ثم قذفته عليها مرة ثانية . . مذهولا . . غائباً . . لا يصدق..لايدري من أمره شيئاً .. ويغلق جفنيه . . وكأنه يريد أن يهرب من واقعه . . غير أن الواقع بكل لعنانه . . يقتحم عليه كل السدود والحواجز . . ويضربه على رأسـه بآلاف المطارق والصدمات . .

أنا منك ياشيمه مريب وخايـف

كلامك غـدت منـه الضلوع حطام

كلامك سرى بالـدم وارتج خافقي

سـهير النـواظـر والعبـاد نيـام

[وتسفح الشمس على وجنات الأفق . . دمائها . . وتتقدم جحافل الليل ، وكأنها جيوش المنتصرين عبر قرون الزمان السحيق . . مليئة بالطبول والصيحات . . والنجوم . . والخراب . . والدموع التي لا تجف .

ويسمع على البعد صوتاً تلوح به الرياح . . فينداح عبر السهوب التي لا تنتهي . .

« وافي . وافي أين أنت . . ياوافي . »

-« ويسألون أين أنـا ؟ . »

ياوافي العـراف وان جيت والـدي

قل لـه شبابي جاير الغـبن غاضـره

وداع وقلبه وسط قبري يحطني
شمال اللوا في سهلة عند ناضره
ويزرع على قبري زهور تظللني
وأبي عاذرات الريم دايم تناضره
الموت ياوافي بالآفاق لاح لي
ياليت عفه عندي اليوم حاظره

[وتحرك وجهها فتنعكس أشعة الشمس على شعرها المنسدل على كتفيها وتشد قبضتها على ثوب وافي :

ويعاود الصوت :

« وافي . . وافي . »

ووافي لايرد . . أو لا يستطيع أن يرد . . لايقوى على النداء . . وكانت شيمه قد ذوت مثلما تذوي الوردة الناضرة . . وتمد يدها المرتعشة لتمسك بثوب وافي وتشد عليه . .

وداع وداع وعند رضوان نلتقي
وعليك مني كل يوم سلام
دعا الروح داع الموت والروح حشرجت
وبدى ناضري يضفي عليه ظلام

[وركزت عيونها على وجه وافي وذرفت دمعة . . واثنتين . . وتبسمت فأشرق وجهها بالنور . . وأرخت أعصابها . . وكأنها انتهت . .

[لا أحد يدري . . الليل مسيطر على أرجاء الكون الأربعة . . ووافي وحيد في جنونه . . وحيد في صراعاته . . مقبل على الهاوية يلمسها بطرف قدميــه .

« ايه يازين الشباب . . هكذا تأوهت أخت أبى فراس . وأنا . »

[قالها . . فتهاوى جسمه وتبعثر . . وتطاير إلى كل مكان قصي على هذه الأرض المهزومة .

« ومع ذلك أكثر الناس يضحكون . . ويرقصون . . ويصفقــون وينساقون كالمواشي إلى مجازر الذبح . »

وتخفق الريح بالصوت القادم . . المقترب . .

- « يــا . . . . وافي . »

« وهل لي اسم بعد أن . »

تهاوت زهور الورد وذوت غصونها
وعلى ماجرى (فاضل) عليه مـلام
وأنا مع طريق الموت طولت خطوتي
ولا عـاد في دنيـا الهـوان مقــام

[وجثى على ركبتيه . . وغاب عن وعيه ثم أفاق على يد تهزه وصوت يناديه ولم يدر كم من الوقت مكث . . استفاق . . وسأل . . ومزق ثيابه وضحك كثير . . وبكى كثير . . وعفر وجهه بالتراب . . فبدى وكأنه قادم من آلاف السنين . . لايعرف من عالمه الحاضر شيئاً ولا يثق بشيء . .

وكان صديقه (مرضي) يحتويه بين ذراعيه . . وبعد أن تأكد بأن (شيمه) قد جادت بأنفاسها . . وأسلمت روحها لباريها وهي محملة بعطر المحبة . . والنقاء . . والصدق . .

واحتار مرضي ماذا يفعل . . كيف يتصرف . . ان صديقه يكاد أن يجن . . بل يكاد أن يقتل نفسه . .

و (شيمه) مسجاة على الأرض ولا بد من اخبار أهلها على الأقل ويعقد العزم على الذهاب إلى أهلها . . وفعلا يحث خطاه نحو منازلها وما أن أقبل حتى لمحه أبوها .. فتوجس من قدومه أمراً جللا . فصاح عن الخبر ..

فتلعثم (مرضي) ونكس رأسه . . وأجهش في البكاء . . فخرجت الأم مهرولة . . وتجمع القوم . . وعلموا بالخبر الفاجع وانتشر واندلع إندلاع النار في الهشيم . .

وكانت ليلة ولا كل الليالي . أقبل القوم . فرأوا منظراً ما خطر على بالهم قط . . (شيمه) وجهها للسماء (ووافي) وجهه للأرض . . وكلهم في عالم يسبح أو يتخبط .

القمر ضاع وكأنه خرج عن مداره . .

النجوم جراح نفذت منها سهام الوجع . .

الأرض تابوت كبير جامد . .

وترتفع الأصوات . .

الأم . . الأب . . الأقارب . . الصديقات . . كل من عرف (شيمه) وعرف فيها الجمال . . والكبرياء . . والشفافيه . .

ويزفر صوت من بين الجموع . .

« يا إلهي . . حتى الجمال يموت . »



[ويحملونها . . يغيبون بها . . يرتج تحت أقدامهم التراب ويتضور الحصى . . و (وافي) في نومه يتمزق . . وفي تمزقه ينام على المصائب . .

العين لا تعرف للنوم طريق . . والنوم لا يعرف للعين مقراً . .

ومن بشر بالهناء في هذه الأيام يجدف . .

ساعات مرت . . وأعقبتها ساعات . . و (مرضي) أمام صاحبه ملتاع وحائر . .

ومر الليل بطوله . . وأشرقت الشمس . . وكأنها الإعلان أو الإنذار أو الحقيقة . . أو الحتمية . .

« لا ليل إلا ويعقبه صباح » —

ألا ليل (وافي) . . ولكن الأرض تلد النساء . . والنساء يلدن الرجال وعلى هامتك أيها التحدي نمارس صنع الحياة . .

حتى وإن كانت الحرائق تحت أقدامنا وفي رؤوسنا تضطرم .

[وفي مطلع الفجر . . حينما كانت الطيور تبحث عن أرزاقها يواري جسد (شيمه) التراب . . ويتفرق الجميع . . وعيونهم تناظر القبر . . وقلوبهم على الدوام تحوم حوله . .

ويشاهدون على البعد شبحاً كأنه إنسان . . أو إنسان كأنه شبح . . ممزق الثياب . . ومعفر الوجه . . لا يبكي ولا يضحك . . ولا يتكلم . . وكأنه يعرف دوره ويعرف طريقه . . فلم يعترضه أحد . . تركوا (وافي) على حاله . . هائماً . . باحثاً . . متعثراً . . حتى إذا ما وصل إلى قبر (شيمه) سقط عليه واحتضنه وقبل التراب . . وخرجت منه كلمات وكأنها عبرات . .

غدى قفل عقلي واستلجت صبابـتي
ولا عـاد في دنيـا الحيـاة مجيـب
أمس وبدري بالحنـان يحوطـني
واليـوم عـني بالـتراب يغيـب
محا الله دنيـا بعـدت من تـوده
عسى مالهـا عنـد الالـه نصيـب

عزي لمن مثلي تزايد به العنى

ولا عاد له بالعالمين طبيب

ويتخبط كالمجنون .. يقطف لمكان من الحجارة .. ويجمع الأزهار . ويغطي بها القبر .. وفكره سابح في الخيال ..

« هكذا بكل بساطة تذهب « شيمه » .. بالأمس كنا نتناجى .. واليوم مع من أتكلم ؟ ..

مع الرياح ..

مع الرمال ..

مع السراب ..

مع من أتكلم ؟ ..

من يعطيني وأعطيه ؟ . »

[فقال وكأنه يجب على تساؤلاته :

أبى منك ياقبر لشيمه تضمني

بحسناك خل العاشقين جميع

وسع لحدك وضم جسمي لجسمها

أبيك للأثنين خير ودبيع

سقاك من نو السما صادق الحيا

وعسى ترابك كل عام ربيع

أبى قرب نزه العرض وأبقى بجانبه

ولنا المصطفى يوم الحساب شفيع

[وتأتي أمه راكبة على ناقة يقودها صديقه (مرضي) . وتأخذ في تقبيله واحتضانه . . وتدعوه للرجوع إلى المنزل . . وهو صامت لايجيب . . كان بصره شاخص نحو القبر . . ثم قال . .

ياقبر ماتنفاجلي وأنت مسموح	تنفاجلي ساعة وأنا منك راضي
نبي نوادع غالي فيك مملـوح	حبه بقلبي دامي الجرح ماضي
عاف الحياة وعلق الروح بالروح	وقلبي عليه من المعاليق جاضي
وأتبعت من فرقاه نوح باثر نوح	والقلب ذاب وباقي الصبر قاضي
ياقبر أبى أعاهدك ياقبر ماروح	الين ماتابس عيوني مغاضي
عليه قلبي بالمعاليق مجروح	وعلى نصايب قبره الدمع فاضي

[وعند هذا العهد الذي قطعه (وافي) على نفسه لم تمتلك الأم العاجزة سوى الإنسحاب .. فذهبت مع (مرضي) لكي يوصلها ثم يرجع إلى حيث صاحبــه .

فعسى وربما تنجلي هذه الغمة . .

وفي هذه الأثناء كان الخبر قد وصل إلى أبناء عم شيمه فيهتاجون غضباً . . ويضعون اللوم . . والسبب . . على (وافي) وأنه هو السبب في وفاة شيمه . . ولا بد من القصاص منه .



[ويتوجه الثلاثة وهم مدججون بالسلاح نحو قبر شيمه فيراهم وافي على البعد . . فيوجس منهم خيفة . . فيحتاط لنفسه . . ويجهز سلاحه . . ويبتعد عن القبر قليلا متذرياً بمرتفع من الأرض .

ويصيح به الغادر وهو مقبل عليه . . متحدياً وشاتماً ووافي لايجيب . . وأخذ الغادر يدوس على القبر بأقدامه فلم يملك (وافي) غير الخروج من مكانه . . فانهمر عليه الرصاص من مزعل ، ومجرم فاصيب في أجزاء متعددة من جسمه سقط منها على الأرض . وأطلق سلاحه عليهم . .

فدارت بينهم معركة ضارية ـ إستطاع وافي أن يقتل فيها مزعل و مجرم . . وأطلق الغادر ساقيه للريح هارباً من هول ما رأى . ووافي يصيح به في أعلى صوته أن يرجع لو كان رجلا .

ويسمع الناس أصوات الرصاص . . فيقبلون ليعرفوا الخبر والنتيجة . فيرون (وافي) منبطحاً على قبر (شيْمه) والدماء تنزف منه بغزارة . .
فتوجه للجميع قائلا :

عيـال مغضب في يمـيـني قتلتهـم

دفـاعـاً ولاني عن طـردهم بسايـل

تمنيت لو عناي أيضاً تمكنت

من غادر بالغدر دايم يحايل

أبا الغدر عقله طار في ساعة اللقا

هرب مع طريق الجبن راع الفشايل

ولدك يامغضب ترك حومة الوغى

وبالجود ماحاش الثنا والجمايل

[وازداد الهرج والمرج بين الجميع . . غير أنهم في النهاية خطأوا أولاد (مغضب) لأنهم هم البادؤون بعدوانهم فحملوا الجثتين . . وتفرق أكثرهم . . وبقي بعضهم . . ومر يوم آخر على وفاة شيمه . . انتهى بالدماء والموت .

[وفي الصباح يأتي والد وافي ويجد عنده صديقه مرضي ويحاول تضميد جراحه وتعزيته . . وإقناعه بالرجوع . . غير أنه كما المتكلم في واد ليس به أحياء . .

وبعد صمت طويل . . قال وافي :

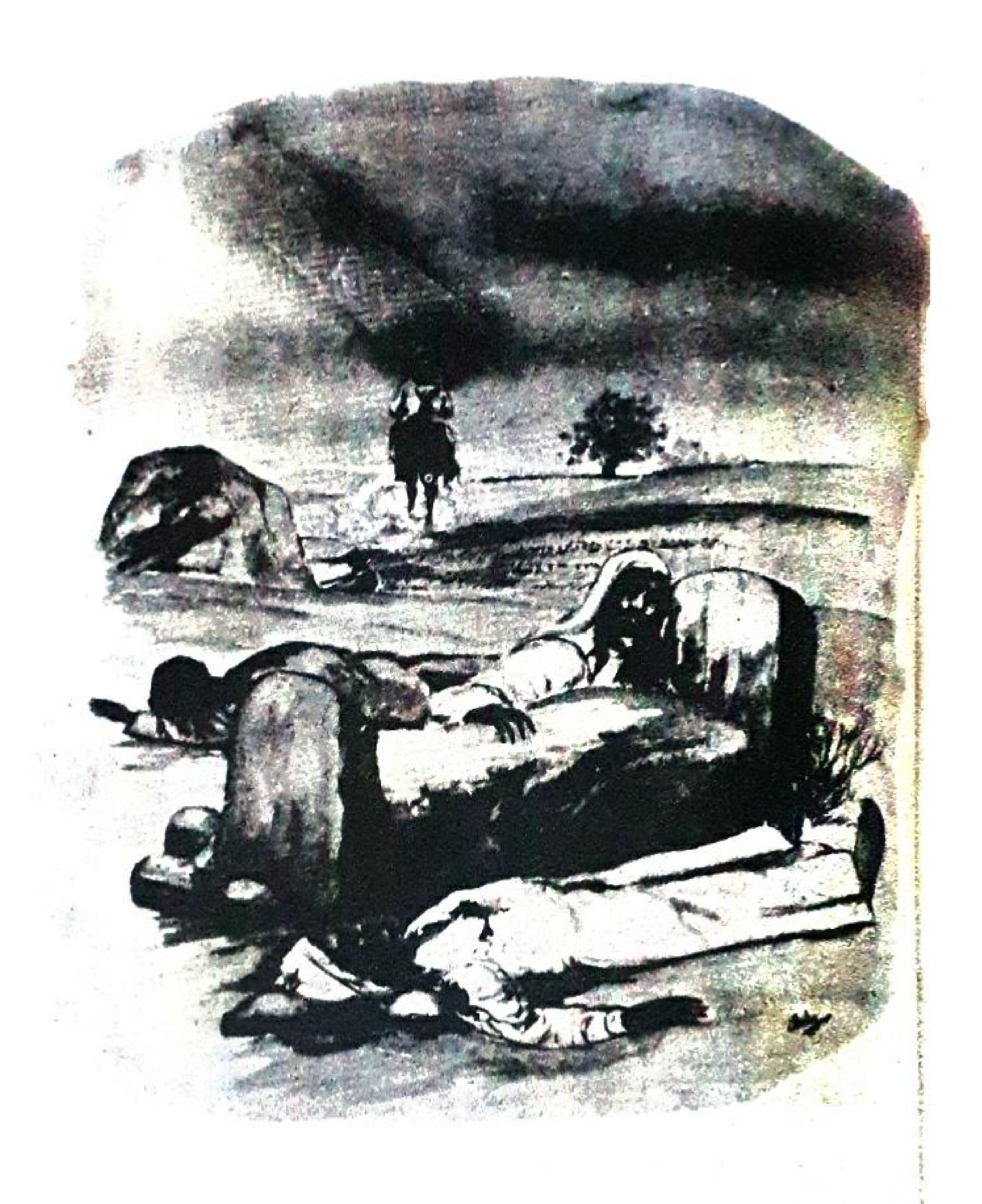
نحدني يـابوي بيـضـا نصيبـه
نصيبـة يـابوي خـلي تحـتـهـا
حلفت مافارق ثراه وشعيبه
ايلين روحي تنتهي خاتمتها
لاتعالجون الجرح ماريد طيبه
وعيني تهل لعبرة ذاخرتها
خلوا نزيف الجـرح يجري صبيبه
مـابي حيـاة شيمتي عـايفتهـا
جروح قلبي قبل جرحي عطية
وروحي سهوم المبغضين اعطبتها

يابوي وان شفتوا من الموت ريبة
لاتبعدون الروح عن صاحبتها

[فيتحسر الوالد على حال إبنه . . ولكنه لايملك من الأمر شيئاً فيدعوا الله دعاءاً حاراً أن يخلص ابنه مما أصابه . . ويرجع الى حالته الأولى ولكن هيهات أن (يصلح العطار ما أفسد الدهر) ويمسك وافي بحفنة من التراب . . ويضمها إلى صدره . . ويشيح بوجهه على الجميع - ويقول :

صلى صالي صلب بصاليه صابني
صطى صارمه بصخار بالصدر صايبه
صفق وأصطفق صلب صرم صافي الحشى
تقصي وقص أقصى قواصي ذوايبه
صروف القصى صالت وصابت صبابتي
صدى صدري الصافي وصكت مصايبه
صليب الصخر لو صابه اللي مصيبني
تصفق صفاه وصب صلصال ذايبه
عصف عاصف وأقصى وصور لقصتي
هصر غصن صب لاصق في نصايبه
لصق في نصايب صاحب صد وأختفى
صباله بصلف صباه صارم نوايبه

[ثم يرتفع صوت (وافي) مخاطباً :
يابوي هذا الموت قد حال دوني
بيني وبينك حال يابوي سيفه



ان مت في جنب الحبيب أدفنـوني
لعل طيفي يجتمع هـو وطيفـه
وازرع علينـا مخضرات الغصـوني
تظـل شـيمـه ويتظلـل وليفـه
وان كان يالعـراف لي تـرحمـوني
اركـز على القبرين بيضـا صحيفه
اكتب ولا بـد المـلا يشهـدونـي
(هذى قبور أهل العروض النظيفه)
المجرمين الغـادريـن أحـرمـوني
من شـيمـه بين الخـلايق عفيفـه
نخيت ميـر النـاس ما يـرحمـوني
وبكيت لـين العـين كمـل نزيفـه
الظـلم ياهـل الظـلم لا تكفـرونـي
خوفوا ترى سـطوات ربي مخيفـه
خـوفـوا من الخـلاق لاتظـلمـوني
وإدروا ترى غضبـات ربي عنيفـه
عسى الحيـا من رايحـات المزوني
يمطـر علينـا كـل وسـمـه وصيفـه
حـتى تجينـا مبعـدات الضعـوني
وتنعـى علينـا كل بيـضا شريفـه

[وينهار تماماً من جراح جسمه . . وجراح قلبه . . غير أنه يتمالك نفسه ويهذي وكأنه في غيبوبة :

الشيمة العليا تداعت صروحها
أرى بدرها بعد الوضوح يغيب
أرى بدرها عقب السما غاب بالثرى
عبث به زمانه والزمان رهيب
الا يازمان الكود والخبث والبلا
خليتني وسط الديار غريب
وحيد من الخلان روحي معذبة
على غالي مالي سواه حبيب
أنا عفت دار الكود والخبث والردى
أنا عفتها ماني لها صحيب
أنا عفتها من عافها ظامر الحشا
جفاها فوادي والفواد غضيب
غضيب من اللوعات من كود ماجرى
على غالي مالي سواه مجيب
أنا حالف لسكن على جال قبرها
أيلين ان مضنوني علي يجيب
والا يزور الموت روح معذبه
وادفن وقبري له يصير قريب

[ويحاول أن ينهض . . غير أنه قواه تخونه فيسقط على وجهه . . فيسارع والده إليه ويضع رأسه على ركبتيه . . فتدمع عينا (وافي) من شدة التأثر — ويقول :

خلوا جـريـح القـلب ينوح غـاليــه
وخلوه يلحـق غـايتـه منتهــاهــا

وخلوه ينـثر من عيـونــه عبـاريــه
حتى تفيض عـبرتــه كل مـاهــا

هنيكم ياهـل القـلوب المـداليــه
يانايمين ليلهـا مـع ضحــاهــا

هنيكم ماحـد شـكا حـر كاويــه
ماذقتــوا الفرقــا وزايـد عنـاهـا

مرحـوم يلـلي ماسلا القلب ناسيـه
وعيني بكت فرقاه وأمطـر سماهـا

مصور بالقلب زولــه وطــاريـــه
وروحـي من اسبابه تدانت خطاهــا

ياعاذل قلـبي ترى العــذل يطنبـــه
دع من عذلت وكل نفس وهواهــا

ان مت حطـوا غـالي عنـد غاليـــه
حتى المطر يسقي ثـراي وثـراهـا

يابـوي لاتلحق غـلامـك مشاريـــه
حب برا حـالي وروحي طـواهــا

عزى لمن مثـلي يصفـق بيـاديــه
وبالقبر عينـه غـاب عنهـا ضيـاهـا

لوهو ليــا ناديت يسمــع منــاديــه
جـريـت ونـات يزلـزل صـداهـا
عاف الحيـاة وراح روحي تباريــه
واقفت به الدنيـا ودارت رحاهـا

[ويلحق وافي بشيمه ويلفظ أنفاسه الأخيرة . . وكانت حصيلته القهر . . وجوهرة الأخلاق المثالية . . فلم يهجع . . ولم يستسلم . . عاش بشرف . . ومات بشرف . .

ويبقى والده المسكين يتيم من الإبن . . والفرح . . لم يمهله الزمان سنوات قليلة من عمره المتردي . . فعاجله بطعنة في الصميم . .

إبنه يموت بين يديه . .

« فما أفقر الحيـاة بالعـزاء . .
وما أعظـم حزن الانسـان . .

الانسان هو الكائن الوحيد الذي يحزن ويكون حزنه شاملا وممتـدا عبر سنوات عمــره . .

يلفه في لحظة واحدة . . فاذا بكل المصابيح التي كانت تملأ ساحات صدره تتحطم دفعة واحدة . . لتسحقه بهشيمها . . لتجعله العوبة في يد الســاخـر . .
وظل مهـزوز في ليـلة باردة . .

اليتم لكم أيها الآباء . . لأن أبنائكم ماتوا وأنتم ليس لكم آباء
يتمكم مزدوج يأتيكم من الماضي . . ويعبر كم ليستقر في المستقبل . .
وكأنكم شجرة بغير جذر ولا أوراق . . ولا ثمار »

[ويجهش الشيخ المصاب ببكاء أمر من العلقم . . ويتقاطر الناس على المكان الذي غدى مركزاً وهدفاً ومسرحاً وختاماً لأبلغ قصة ذهب ضحيتها أبطالها . .

ويحفرون القبر . . ويدفنون (الوفاء) . . وينسحبون كأنهم الغمام المحمل بالدموع .

[وفي منزل وافي كانت قصة أخرى مع أمه تدور . . في ليلة انحسر فيها مد العطاء . . وانتكس المنطق . . الأم لاتفهم شيئاً . بل من المستحيل أن تفهم . . لم تبك ولم تمزق ثيابها أصبحت تنظر للناس وكأن الأمر لايهمها وكانت بليغة في عذابها . . وعذابها بليغ في تعذيبها . .

ولازم (مرضي) منزله الذي كان على الدوام مسرحاً للمرح . . والدعابات . . والذي انقلب أخيراً إلى حائط للحزن . . يرده كل الشباب الذين عرفوا (وافي) وأحبوه وعشقوا فيه كل الخصال الحميدة . .

كان المنزل لايخلو ممن أتى ليعزي مرضي بصديقه وخليله . . ومرضي في حالة من الذهول لايحسد عليها حتى أمه أصبحت قليلة الكلام والحركة .. وكل مافعلته حينما سمعت بالخبر . . أن فرشت سجادتها وتوجهت إلى القبلة وراحت في صلوات متواصلة . .

والتفت (مرضي) نحو أحد أصدقائه – وقال :

أعمارنا تقضى بيـــوم وليـــلـــة ومافات من ساعة فلاهي براجعة
ولا فيه حي الا مرده الى الفنـــا سوى خالق خلقه وبالحشر جامعه

الايام هي الايام والعمر ينتهي ولافيه حي الا له الموت فاجعه
الا واعشيري حيل بيني وبينه ولو صحت له بالصوت ماهو بسامعه
عدمت الوفا لا واحسايف على الوفا عليه عيني بازرق المى دامعه
فلابد من يوم تقافا رحايلي على السنة البيضا للاعلين تابعه
ياليت يومي سابق يوم صاحبي ولا ذقت حسرات لقلبي تلاوعه
تصرم شبابه عقب فرقا حبيبته سهوم المنايا بين الاثنين جامعه
بقبرين دفن المجد واكبر حسرتي وبقي الياس للقلب المعذب يصارعه

[وأردف قائلا :

ان هبت الغربي تذكرت وافي وتذكرت دار العز طاف سراجها
وان هبت الشرقي تذكرت شيمة وضاقت علي من كل نجد فجاجها
كما زهرتين فوق نبنوب دوحه سقاها غمام المجد والكون عاجها
عليهم ذرفت الدمع من موق ناظري ولا لوم عيني زايد الحزن هاجها
تتابعت عبرات صدري وأنا الذي حسرات قلبي مالقينا علاجها
تقافت دموع الغين من فوق وجنتي تشدي هماليل السحاب انزعاجها
حنا دفنا المجد غرب من اللوا جنوبي نواظر بالسهل عن هباجها
ارى عقبهم دنيا الحياة تزلزلت وطفى نور شمس الكون وأرخت حجاجها
أعزيك يادار غذتنا بعطفها وأعزيك ياعين تزايد خلاجها
هذا قبر وافي به الجود والوفا وهذا قبر شيمه وهذا مداجها
تغيرت دنياي ياجاهل بها وفي حسرة مكنون صدري ملاجها
البدر غاب وغاب نوره عن الورى والشيمة العليا سقط عقد تاجها
دار الفضلية والشرف عقب مجدها تهدمت عقب المعزة ابراجها
هجرها عزيز الجار واسفت رسومها وبها ناح فرخ البوم عقب انبهاجها

[وتنقلب صفحة أخرى من تقويم التاريخ . . أو الزمان العالمي . .
ويأتي والد (شيمه) ليعزي العراف في مصابه ويعتذر منه ان كان مخطئاً . .
وبعد أن جلس فترة . . توجه إلى العراف مخاطباً :

أنا وانت يالعراف ياكبر ذنبنا
ولا لنا عند الاله وقار
لتلنا الوفا عمد على غير موجب
وشيمه قتلناها خطا وجهار

[ويلتفت إليه العراف بعين كالحة . . وتقاطيع وجهه لاتستقر على
حال . . وكأن وجهه أصبح ساحة للزلازل . . ثم يجيبه :

الأم يافاضل تحملت جرمه
وأنا سليم ولا علي أوزار
أنا شرت بالـلاما ولكن عصيتني
أمر جرى للعاشقين وصار

[فيحاول فاضل أن يهدىء على صاحبه . . فيرجوه بصوت هادىء :

تعال ياالعراف نصلي لربنا
نصلي ونبدي للكريم أعذار
وأرواحهم نطلب لها صافي الرضى
شهيدين ماداسوا خمال وعار

[فيروق (العراف) قليلا . . ويستغفر ربه . . ويدعو دعاءاً مستفيضاً ثم يقول :

تمنيت يافاضل لو الموت زارني
ولا زار من له بالمعالي كار

هيا نصلي للاله يظلهم
بظله الى كاد الحساب وجار

[وينهضان . . ويسيران وحدهما متجهين إلى حيث قبر شيمه و وافي .

كان أحد الأشخاص الحضور جاسوساً أرسله (الغادر) : ليسمع مايدور بين (فاضل) و (العراف) . . فانسحب من المجلس حال خروج الأثنين . . وتوجه إلى الغادر وأخبره بكل ماقيل وماسمع . . وكيف أن الأثنين توافقا على الذهاب إلى مدفن شيمه و وافي ليترحما عليهما . .

فابتسم الغادر إبتسامة اللؤم والحقد . . ثم أخذ يقهقه بأعلى صوته . . وأخذ سلاحه وملأه بالذخيرة . . وركب فرسه وأنطلق نحو فاضل والعراف ووجدهما راكعين في صلاتهما على الأرض يستغفران . .

وبدون أي كلام أو مقدمات . . أطلق عليهما النار فارداهما قتيلين يتخبطان في دمائهما . .

وتعالت ضحكات الغادر مع وقع حوافر الجواد وخلفه الغبار . . وغاب كالسهم . .

وفي طريقه لاقاه بعض من سمع الرمي . . فرأى على ملامحهم علامات الاستفهام . . فجاوبهم وهو لازال يضحك . . ويعض على نواجذه :

قاضل مع العراف عمداً قتلتهم
يوم أنهم بين القبور ركوع
قتلتهم في ثار مجرم ومزعل
وهم يذرفون من العبار دموع

[ولكز جواده وأنطلق نحو مجده المغبر والملوث باللعنات .

وفي نفس الوقت كان هناك مجموعة أخرى من الشباب . . وصلت إلى المكان . . فقال أحدهم :

هذا قبر شيمة وذا قبر وافي
وأبوانهم بين القبور نيام

[فجاوبه الثاني :

يامون لكلى والصقيع يضرهم
والكل منهم من عناه يضام

[فاستدرك الثالث :

أنا ظنهم ماهم نوما ولكن
شربوا من الغدر القديم حمام

[وأكد الرابـع :

أنا اشوف دم سال بالأرض بينهم
وكاد أنهم ماتوا بضـرب سهام

[وصدق له الخامس :

الغدر فاجاهم وهم في صـلاتهـم
عـلى أرواح قتلى بالوداد كـرام

[فطلب منهم السادس :

تعالوا نحفر قبورهم عند مجـدهـم
في سـهـلـة بـين اللـوا وعـدام

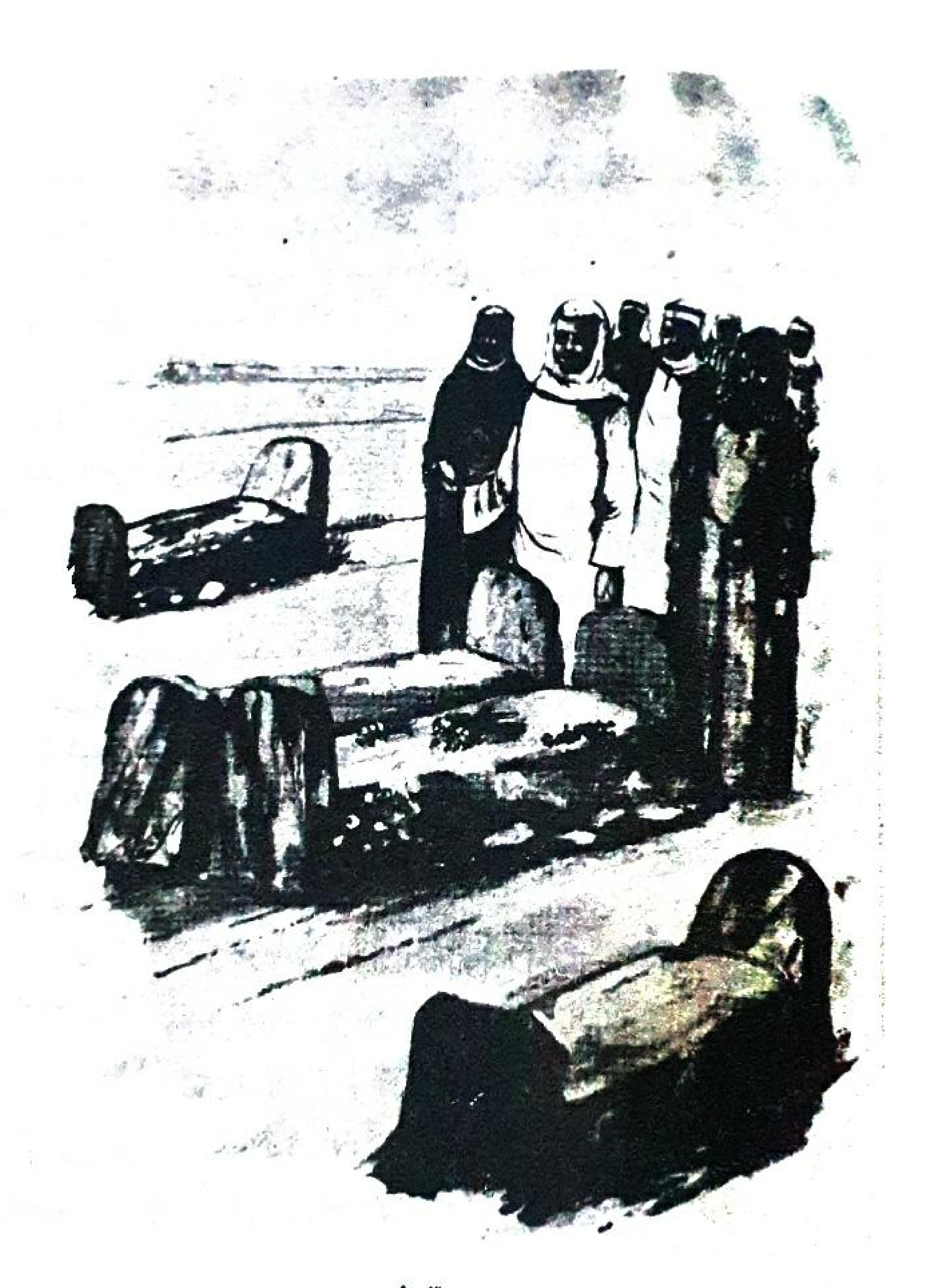
[ورد عليهم السـابع :

نحطهم مابـين (شيمه) و (وافي)
وعليهم صـلاة الطاهـرين تقـام

[وفعلا يحفرون قبرين مجاورين لقبر شيمه ووافي ويصلون عليهما ويدفنانهما .

وقبل أن يفترقون يقف أحدهم ويخاطب البقية وكأنه محام يطالب بالعدالة والإقتصاص من المجرمين والعابثين :

« لقد عشنا طفولتنا وشبابنا وكل ماعلى هذه الأرض التي نسوح فيها شرقاً وغرباً ينبئنا بالخير ويبشرنا بالسلام . فرعينا حلالنا وأكلنـا وشربنا . . وتزوج منا من تزوج . . وكنا ولا زلنا نأمل بالحياة الطيبة الكريمة . . فكيف نسمح للأوغاد أن ينجسوا ويكدروا صفو هـذه الحياة . . كيف نسمح للمتلاعبين أن يضيقوا العيش في وجه من سعوا



للصلاح . . كيف نترك لقاطع الطريق أياً كان ان يحرم انسان من حياته . . أو يمنع انسان من أخذ حقه . . أو يردع انساناً عن أمانيه الشريفة . . هل يحق لنا الصمت والخنوع طالما أن الظالم يستبيح كراماتنا وهو يجلجل بالضحكات ؟ . .

ألسنا رجالا. ألا يحق لنا أن نطلب الموت لكي توهب لنا الحياة الحقيقية التي نادى بها (وافي) وسعى اليها . واستشهد في سبيلها . . تلك الحياة التي تبنى على المحبة والعزة ومقارعة الظلم بالايمان بالحق »

[وترتفع الأصوات من رفاقه متجاوبة مع ما يقول ومؤكدة على أهدافه ويستمر في كلامه :

« إذاً لماذا نقف مكتوفي الأيدي ؟ . . لقد ذهب (وافي) ولن يعود لنا بجسده . . ولكننا نستطيع أن نجسد أفكاره وأمانيه أفعالا ومواقف . . و (شيمه) تلك الزهرة التي ذوت قبل أوانها و (فاضل) و (العراف) كل هؤلاء لهم حقوقهم علينا نحن الشباب . . فعلينا أن نضع لكل عابث حده . وأن نعيد الأمور إلى نصابها بين تلك العشائر التي خيم جو الرعب والبطش بين مضاربها . .

ان الله لاينصر قوماً إلا إذا نصروا كلمة الحق وأتبعوا سواء السبيل »

[وصمت قليلا ، ثم قال :

« علينا أن نتعاهد . . وألا نبرح هذا المكان حتى تكون قلوبنا واحدة . . كما الأصابع في اليد الواحدة . . ومد يده إلى رفاقه . .

وتصافحوا وهم يعاهدون الله على المضي في سبيل الحق والشـرف والوفـاء ، والشيمـة .

[وفي هذه الأثناء تمر قافلة من بعيد . . مسافرة أو مهاجرة إلى حيث السلام والربيع . . على أرض لايرتع فيها الغدر والإجرام والحزن . . والدم الذي ينسكب . . مثلما ينسكب الماء ويرخص . ويعلو صوت فتاة تحدو من القافلة . . تنقله الريح وتطوح به وديان من الأمـل :

حب غـدى في شيمـه	وصـرم قليـب الوافي
يـاعـزتـي لـه والله	ماسـتر بنـومـه غافي
وحيـاتـه راحـت شقا	ودمعـه دايـم ذرافي
أطلب من كل قلبـي	لـه بالجنـة مـلافي
شيمـه والوافي مـاتـوا	بالعفـة هـواهـم صافي
مسكينـه والله عفـه	تبكِي من غـل خـافي

[ويجاوبها صوت أبعد تعثو به المسافات :

ترى الود ياهل الود لو هو صفى ساعه
يجي ساعة تنحى المـوده وتبعـدهـا
مثل وافي العـراف جرح الهوى لاعـه
تغير هواه وشيمة المجد فاقـدهـا
تغير هواه وصارت النفس مجزاعـه
على شيمه له خاطف الموت صايدهـا
تذكر هواه بوسط نجد ومرباعـه
بوسط الفياض الخضر عينه تشاهدها

جزع واحترق والموت من عقبها راعه
فقد لذة الدنيا وهذى عوايدها
بقى الوقت يصفيله ولاشك ماطاعه
تغير صفى الدنيا وشاهد زهايدها
عسى الله عليه برحمته يضفي قناعه
عن النار بالجنة يظله ببباردها
من أسفر زمانه له وغره بشعشاعه
يوريه تالي الوقت قاسي شدايدها

وتمتد السهوب . . تمتد كالبساط وتنسحب . . وأقدام الناس تتعثر . . يتساقطون الواحد تلو الآخر . .

لاغالب إلا الله . .

هذه جملة محفورة . . ومكتوبة . . ومرسومة على جدران قصور الأندلس يوم أن كان الزمان طيباً .

ثم انسحب البساط . . وتساقطت الدمى . . وبقيت جملة واحدة . .

لاغالب إلا الله . .

الزمان ليس خائناً . . ولكن الانسان هو الذي ينسى ولا يتعلم ففي لحظة قوة ، وبطش ، وسيطرة تنقلب الموازين ، بل وتتزيف

وتلتقي كل الخطوط في ذات انسان متوهم . تصور أنه المحور لهذا الكون . . وينسى لحظتها أن جرثومة قد تصرعه . . وأن كذبة قد تخدعه . وأن مايراه ليس كله صحيحاً . وأن مايسمعه ليس كله صادقاً . . وأن مايفكر به يحتمل الصواب والخطأ . .

وتمتد السهوب . . تمتد كالبساط . . وتنسحب . . وتلوح الريح بين أعناق الجمال محملة بالصبر وأحزان القبائل . . والصوت القاتل المقتول .

[لم يعد هناك إنسان في العشيرتين . والعشائر المجاورة . . لا يعلم بمأساة (وافي) و (شيمه) . . الكل أخذهم الواقع المفاجيء الذي حل بأرضهم كالوباء . .

فدمر أغلى شبابهم . . وأعز رجالهم . . وعفـه والـدة شيمه هدها الخطب . فأضحت لاتفكر في شيء غير الإنتقام ممن طعنوها في الصميم .. وحرموها إبنتها التي تصورت أنها والزمان توءمان . . فمن أين لها بالسند وزوجها ذهب مع إبنته وكانا ضحية الغدر . .

« ياإلهي ساعدني على نهاية المشوار . . الظلم لايمكن أن يسيطر على الأرض . . وأنت ياربي أكدت هذه الحقيقة . . بل وطلبت من الناس أن يبنـوا حوافزهم وآمالهم عليها . .

الموت حق . . ولكن الظلم باطل الأباطيل . . من رضي بالمـوت مؤمن . . ومن تقبل الظلم خائن وجبان . »

[وتلتفت عفـه إلى حيث ينام إبنها الفتى « فراج » وتلمع عيناها في الظلام الحالك . .

« فراج . . نعم انـه . . فراج . . ولا أحد سواه . . هو الذي سوف يسدد الضربة النجلاء . .

ولدي . . حبيبي . . لن أجعلك تعيش وعـار الغـدر والظـلم معلق في ثيابك »

[وتعوي الذئاب من بعيد . . وتنبح الكلاب . . وصدور الرجال مليئة بالصراعات المتناقضة . .

وحينما طلع النهار على الأم الساهرة أبداً . . إستيقظ وحيدها الذي عرف مرارة البكاء سريعاً . . وخالجته نوازع العنف التي لايفهمها . . ولكنه يسعى إليها بكل تأكيد .

بدى الجو في ذلك اليوم مغبراً وقاتماً . . تكتنفه رياح تهب من الشمال بين الحين والآخر . . ممتلئة بالتوقعات والمفاجآت ويتقاطر الناس على بيت (فاضل) الموشح بالسواد. ويتلفت الصبي في عيون الجميع وفي ملامحهم .. وبدو لـه وكأنهم ينادونه أو يوبخونه أو يستفزونه . . الكل يتساءل في همس عما سيفعله إبن السادسة عشر . . هذا الذي أقبل على الدنيا فوقفت في وجهه عنوه . . ويرجع مرة أخرى إلى داخل البيت . . فيرى أمه وقد عصبت رأسها بمنديل أسود . . وما أن رأته حتى كشفت عن رأسها الأشيب إمعاناً منها في التعبير عن القهر والجور الذي لحق بها . وخاطبته وهي ترتجف :

فـراج راسي شاب من زايد العنـا
أنعى ولا لـي بـالعبـاد مجيـب
ولا شفت مخـلوق لبلواي ينتقـم
والنـوم للجفـن المـريض حريـب
ولا ظـن غيرك بالشدايد يعيـنـي
ولالي بهـا الدنيـا سـواك حبيـب

فراج فرج كربتي عقب شدتي
بفعلك ترى جرح الفواد يطيب
أبيك باخذ الثار تبرى ضمايري
وخلك بقص المنكبين طبيب
اقدم بساعات الوغى واترك الردى
النصر بطراف السهوم قريب
فراج لاتترك عدوك من الملا
افهم ترى غلب الرجال يعيب
يعيب الفتى عيب تحاكا به الورى
ولا له بكسب الطايلات نصيب
ابيك يابن الفضل تاخذ وصيتي
وصر ماجد حذق الفواد لبيب
فراج شف دمعي على صفح خدتي
وابيك بالفعل العظيم تجيب
مايدرك الطولات من لا سعاها
ومن لاشقا فيها تراه يخيب
لاعل يمنا ماتسدد ديونها
عساها من بين اليدين تعيب

[ظل فراج في مكانه . . صامتاً . . وكأنه جماد لايتحرك . . وفجأة تحرك وأخذ يفتش في ملابس أخته حتى وجد منديلا فعصبه على جبهته . وتناول حزامه وتمنطق به . وأخذ بندقيته . . ورمق أمه العجوز . بنصف نظرة دامعة .

وخرج في مواجهة الناس الذين ما أن شاهدوه حتى ازداد هرجهم وتدافعوا وهم يفسحون من أمامه الطريق . كانت عيناه عالماً يضج بالملاحم . الأرض والسماء تساويا فيها . . والناس كل الناس لا يعدلون الكفة بأمه .. ولا بحزنها . . ولا بالإهانة التي لحقت بها .

وتخطى الجميع . . ثم وقف واستدار متلفتاً صوبها . . وقال :

تذكري عهـد المهلهـل وماجـرى
لكليـب يـوم الصـافنـات تـذاد
عاهد أخـوه كليـب وكليـب ميت
وحرب البسوس أطول عناه وكاد
وأفنى بني مـرة وخـرب ديارهـم
خمسين عـام في عنـا وجـهـاد

واليـوم أبـا عاهـدك متـرك وصيتك
وحيـاة من رسـا الجبـال أوتـاد
وعيب على شبل تـرك ثـار والـده
يغشـاه من بـين الرجـال سـواد
من ماجرى عيني حريب لهـا الكرى
وكنـه يركـز بالجفـون كتـاد
ولا بد ابن مغضب بعينـه يشـوفـني
على ضامر قبـا الضلـوع سـنـاد
على ضامر للثـار نـرخي عنـانهـا
طويلـة مصـك المنكبـين جـواد



دقيـق معنقهـا طويـل سـاقهـا
قصـير ظهـرهـا بالعلـيـق تـزاد
عريضـة الهـامـة قصـير قينهـا
وسيـع نحـرهـا والعيـون حـداد
أبلحـق عليهـا اللي سـفك دم والدي
ان ذل مـن هول الطـراد وخـاد
أنـا سليـل الفضـل فـراج كـربـه
لابـد مـن فعـل يعـد وكـاد

[وصمت قليلا ثم واصل مسيرته . . وكلما مر ببيت شيعه أهله بالدهشة والرثاء . . والتوجس . . إلى أن وصل إلى منزل الغادر الذي وصله خبر فراج وخروجه قبل أن يأتي وإذا بالبيت ممتلىء بالرجال وكل واضع اصبعه على الزناد . . والغادر بينهم لايرى . . وعلى بعد أمتار قليلة من المنزل وقف فراج وصاح بصوت جهوري :

« أنا الفراج ياغادر . . أنت تعرفني . . وتعرف أبي . . وأهـلي . . وتعرف مقصدي من المجيء

[وران صمت مطبق على المكان قطعه صوت فراج مرة ثانية :

« لماذا لاترد ؟ . . هل صعقتك المفاجأة لأنني أتيتك في وضح النهار وأمام كل أعوانك ؟ . . هل كنت تتصور أنني سوف أتبع أساليبك في الغـدر ؟ . . لا . . ان ذلك ليس من طباعنا . . نحن تعودنا وسوف نتعود على مواجهة الرجال وجهاً لوجـه . . ان الحياة إذا كانت غالية عليك فهي عندنا أغلى . . ولكنها ترخص . . وتتلاشى في لحظـة نرى فيها أننا قد نقبل الاهانة . . والظلم . .

أنت مجنون أيها الغادر . . وجنونك وحقدك هما اللذان سوف يقودانك الى حتفك . . وإذا كنت رجلا فعليك أن تخرج لي عند سفوح (اللوا) وأنا هناك أنتظرك . . ولن أبرح المكان حتى تجيء»

[وأطبق الصمت من جديد على كل الوجوه المتوترة الصارمة . .

واستدار (فراج) ونكس على عقبه متوجهاً إلى منزلهم . . تشيعه النظرات من كل جانب . . حتى إذا ما وصل إلى البيت . . ذهب إلى والدته وقبل وجنتيها . . ويديها . . وطلب منها أن تدعو له في محنته هذه . . ورفعت العجوز كفيها للسماء تطلب وتبكي . وقال هذه الأبيات :

جوادي للملاقا قربوها وحطوا فوقها سرج زهالي
ابركب فوقها طلاب ثار وبانطح فوقها خصم موالي
أبانطح فوقها ذباح ابوي واخلص ديني اللي قد غدالي
من اللوعات جاني ما كفاني مريض القلب من ضم الليالي
الى ذليت يلحقني سواد وتنقص قيمتي عند الرجالي
جوادي للملاقا قربوها وليا ثار الدخن شوفوا افعالي

[وأسرج (فراج) فرسه . وودع معارفه بنظرة خاطفة . . وأنطلق إلى المكان الذي تصور فيه حياته أو مماته . . أو غسله للعار في كلا الحالتين أكيد .

« إذاً ماذا تنتظر يافـراج ؟ . . عليك أن تعجل أكثر . »

[ويلكز فرسه . . وتستجيب لـه . . وكأنه يطلب منها فتعطيه . . ويصل إلى المكان . . ويدور فيه . . وينـادي بأعلى صوته متحدياً الغـادر فلا يجاوبه غير الصدى .

وفجأة يظهر لـه شخص من بين الصخور . . وفي حركة خاطفـة يصوب فراج سلاحه نحوه . . وكاد أن يضغط على الزناد لولا أن تبين لـه أن ذلك الشخص رجل عجوز يتوكأ على عصاه . . فقد سمع نداء فـراج وصياحه فخرج يستوضح الخبر . وهـز فـراج رأسه واستعاذ بالله وانزل سلاحه . . واخذ الشيخ يقترب منه رويداً رويداً وسلم عليه . ودار بينهما هـذا الحـوار :

الشيخ : ماذا تريد يابني في هذا المكان الموحش ؟ . .

فراج : انني على موعد حاسم . . ولا بـد وأن أكون وفيـاً بالمواعيد .

الشيخ : ياالهذا الموعد العجيب . . أهو موعد أفراح أم موعد أتراح ؟ . . أبدلا من أن تحمل غصن المحبة .. تحمل السلاح وتواجه الناس ؟..

فراج : الانسان ياعمي في بعض الأحيان يكون مرغماً على حمل السلاح .

الشيخ : ولكن الحياة يابني أكبر مما تتصور . .
وأنا الذي عرفتها أكثر منك . . وأنت لازلت (فتى) صغيراً لم تجربها بعد ؟ . .

فراج : انني أريد أن أجربها . . واليوم هو أول خطواتي .

الشيخ : دعك من المكابرة . . وإذا كنت في موقف تحدي مع (الغادر) الذي أسمع عنه . . وأعرف أعماله الدنيئة التي لاتتقيد بالشرف والفروسية . . فعليك أن ترجع إلى أهلك سالماً . . لابد وأن تسلم بقانون الحياة الذي يقول ان الأقوى هو المسيطر . . ؟

فراج : هذا صحيح . . حينما يكون الأقوى يؤمن بالمثل الكريمة ولكن كيف يستسلم للأقوى حينما يكون مجرماً وحاقداً وقاتلا ؟ . .
أليس الموت أروع وأعظم من هذه الحياة التي تجعلنا نتفيأ تحت ظلالها السوداء الخانقة ؟ . .
انك أيها الشيخ الكبير تبحث فقط عن انسلامة . . وكأني بك قد وصلت الى هذه السن لأنك تمشي على هويتك . .

الشيخ : انك لم تفهم قصدي يابني . .
انني لو قصصت عليك حياتي لرأيت فيها العجب . . وقد تقول عني انني مبالغ لو أريتك صدري . . ورأيت الندوب التي فيه . . ولكنني بعد أن وصلت الى هذه السن إنفتحت

أمامي مشاهد جديدة . . وندمت على أفعال فعلتها كانت لاتستحق مني كل ذلك الغضب والهياج .
لقد عرفت أن الانسان يستطيع أن يكون نبيلا وعاملا بدون أن يكبد نفسه كثيراً من العناء . ولولا خوفي عليك لما خاطبتك وأصريت عليك . .

فراج : اني مقدر لك نصائحك . . ولكنني ماخرجت من منازلي إلا وأنا هادم لكل الجسور التي تصلني بها . . ولن يرجعني إليها إلا الشرف الذي لايفرق بين الموت والحياة . .

[وفجأة يسمعان وقع حوافر جواد قادم من بعيد فعرف فراج أنه الغادر . . وطلب من الشيخ أن يبتعد قليلا . . وأخذ الغادر يقترب وهو يصيح ويقهقه :

« لقد أتيتك يابن عفه . . أيها الطفل الغرير . . لتندم على يوم خاطبتني فيه . »

[وعلت ضحكاته ونخواته ولكز فراج فرسه متقدماً نحوه . . وثار الغبار والعج . . وصهيل الخيول بينهما . . وتفارقا . . ثم التحما . . ثم تفارقا من جديد وخمدت صيحات الغادر . . وكأنه عرف أن الذي أمامه إنسان ليس بالهين . . واستمرا على هذه الحال بعضاً من الوقت . . كان الشيخ فيها مختبىء بين الصخور يشاهد هذا المنظر الفريد الذي سوف يحكيه لرجال قبيلته . . فهو الشاهد الوحيد على ما حصل .

وفجأة يسقط الغادر من على ظهر جواده . . وينثني عليه فراج ويقف أمامه بدون أن ينزل من على فرسه . . ويرفع الغادر وجهه الكالح نحو فراج متوسلا إليه أن لا يقتله فيبصق فراج في وجهه . ويقول :

ذق المـوت ياغـدر الزمـــان ببنـدقي
من كـف شـبـل صـارمـات صوايده

من كف شـل جال في حومـة الوغـى
غليل الضماير طالب ثـــار والـــده

عيـب عـــلى مثـــلي إلى هـــد ينثني
الى استلجت ودلهمت شــدايــده

تجرع لكاس الموت من عقب هـدقي
ونتـلات مـر الموت يالغـدر كايـده

قتلت عمـــك يالجبـــان تعمـــــــد
ولا أدركت ياقطاع الارحام فايـــده

ياليت فاضل شاف فعـــلي وفعلـــك
يشوف ضرباتي بتديـــك جايــده

تركتك بساحات الوغى تنثر الدمـا
بعد عهدك الغابر تشـاهـد زهـايـده

[ويعرف فراج أن الغادر ميت لا محالة . . فهناك أكثر من رصاصة مزقت صدره وعليه أن يتجرع مرارة الألم حتى يموت .

ويخرج الشيخ العجوز متهلل الوجه . . دامع العين . . حتى إذا ما وصل إلى فراج مسح على ركبته وقال :

« أنت بالنسبة لنا المستقبل . . والحياة المشرقة ولن يخيب ظـني بعد اليـوم فيـك . .



اذهب على بركة الله . . إلى أهلك . . فاليوم هو العيد . . وأنت قطعت دابر (الغـدر) على هذه الأرض الطيبـة .»

[ويخب الجواد بفراج الذي تنازعته المشاعر من كل حدب وصوب . . فلاهو بالسعيد . . ولا هو بالحزين .

لقد أحس أنه قد تخطى سـنه الحقيقي بعشـرات الأعـوام . . فتقاطرت على ذهنه صور عديدة . .

(فاضـل) ، (شـيمه) ، (وافي) ، (أمـه) ! !

« ياهـذه الأم الصابرة . . ان أمي هي الأرض . . وأرضي لايشبهها شيء أكثر من أمي . . انها حياتي الباقية .»

تبسـم . . وأسرع في جواده أكثر .